اسكندو

# الاسرة ومشاكلها الاجتماعية

تجليد
صالح الدقر
بيروت - المزرعة

JAFET [LIB]

306.85
I81FA

# الأُسْرَة ومشاكلها

## الاجتماعيّة

لويس اسكندر

درجة B.Sc. في العلوم الاقتصادية
من جامعة لندن
وليسانس في التربية والآداب

## مقدمة المؤلف

« الأسرة ومشاكلها الاجتماعية » بحث قصير يتناول أولا تحليل مركز الأسرة فى المجتمع ويعرض للتغيرات التى طرأت على وظيفة الأسره وبنائها فى العصور الحديثة مع الإشارة الموجزه إلى الاسرة المصرية والمقارنة بين أسرات الريف وأسرات المدن من حيث تأثر كل بالمدنية الغربية . هذا ما يشمله الباب الاول من الكتاب .

أما الباب الثانى فقد عالجت فيه بعض المشكلات الاجتماعية التى تقوم فى حياة الاسرة . أولها مشكلة سعادة الأسره والعوامل التى تؤدى إليها . وثانيها مشكلة تحديد النسل من الوجهات المختلفة ، وقد تعمدت فى بحث هذه المسألة أن أبين آراء المحبذين والمعارضين لها مع تفنيد حجج كل فريق . أما المشكلة الثالثة فهى تقلقل مركز الاسره الحديثة والبواعث التى أدت إليه فى أوروبا والولايات المتحده ومصر ، وقد كان الأخيره نصيب أوفر من البحث لانى كمصرى يهمنى قبل كل شىء أن يكون مجتمعنا سليما وطيد الأركان . أما المشكلة الأخيره فهى مركز المرأه الاجتماعى والاقتصادى فى الأسره والاتجاهات التى يسير فيها فى هذا العصر وما ينتظر له فى المستقبل .

ويجب على أن أعترف أن هذا البحث لم يكن شاملا وعذرى فى ذلك أن حيز الكتاب أضيق من أن يتسع للأسهاب والشرح المطول ولكننى قانع بأن المسائل الحيوية التى عرضت لها سوف تثير فى

القارىء الرغبه فى التوسع فى الموضوع وسوف تحفزه على تطبيق ما قرأ على حالته الخاصة ، لان كلا منا عضو فى أسرة ويستطيع أن يتبين بسهولة وجوه الكمال والنقص فيها ، وفى مقدوره أن يرى إذا كان الكاتب قد أصاب أو أخطأ فيما عرض من آراء .

وإنى لاتقدم بالشكر العظيم إلى المربى الجليل والكاتب الكبير الاستاذ محمد فريد أبو حديد لتفضله بتقديم الكتاب الى جمهور القراء بذلك الاسلوب الرائع الذى اشتهر به فى محيط الأدب العربى .

وكذلك أعترف بالفضل لصديقى الاستاذ محمد على أبو دره لتكرمه بمراجعة الاصول بما عرف عنه من الدقة .

وإنى لارجو أن يملأ هذا الكتاب الصغير الحجم فراغا كبيرا فى حياتنا الاجتماعية . ويلقى ضوءا كافيا على بعض مسائلنا الخاصة والعامة التى تشغل بال الكثيرين منا رجالا ونساء متزوجين وغير متزوجين .

لويس اسكندر

أغسطس سنة ١٩٤٤

## للمؤلف

## الانسان والبيئة :

بحث اجتماعى جغرافى يعرض لحياة الإنسان فى بيئات الصيد والرعى والزراعة والصناعة مبينا أثر البيئة فى الإنسان وأثر الإنسان فى البيئة .

# تقـــدمة

يمتاز المجتمع الحى المتطلع إلى الأمام بأنه محس بنفسه دائم النظر فى الحقائق التى تكمن فى ثنايا نظمه وتوجه جهوده . ويكاد هذا الاحساس بالنفس يكون المميز الأول العام بين المجتمعات البشرية سواء فى العصور القديمة أو فى العصر الحاضر . فالمجتمع الذى لا ينظر فى الحقائق التى توجه وتحكم مصائره إما أن يكون مجتمعا ابتدائيا لم تتهيأ له بعد من الروابط ما تجعله متماسكا شاعرا بوجوده أو مجتمعا فانيا قد تحللت روابطه وأصبح جمهورا من أفراد متفرقين قد حطمت الحوادث نظمهم وفككت الأسباب التى تمسك قوامهم . وهذه المجتمعات الكاذبة الفانية لا تبقى إلا ما أمكن التمويه لها فإذا زال مظهرها الخادع عند أول صدمة انهارت وفنيت ورسبت إلى القاع فى الوجود الإنسانى وبقيت هناك أفرادا مفككة فى الكتلة التى تبقى فى الحياة مكتفية بأن تلتمس القوت كما تلتمسه الحيوانات المستأنسة الضعيفة .

ولذلك كان على كل مجتمع يطمح إلى الحياة القوية أن يعمل بكل ما استطاع على إنشاء الروابط بين أفراده وتقويتها وعلى خلق الأسباب التى تمسك بينهم من كل السبل الممكنة .

ولكن الروابط الاجتماعية التى تجرى فى تكوين المجتمع الصالح أدق وألطف من أن تدبر وتخلق بمجرد الرغبة فى تدبيرها وخلقها .

لأنها لا تتهيأ من الخارج فلا يمكن لفرد ولا لهيئة من الناس أن يوفروها إذا شاءوا إيجادها لأنها ليست شيئا ماديا مما يتيسر للانسان أن يحتال فى الحصول عليه . فليست ثروة الأمة وحدها كافية لخلق المجتمع الصالح فيها وليست الجيوش الجرارة التى تستطيع أمة أن تحشدها كفيلة وحدها بأن تمسكها وتضم كتلتها وليست وحدة المصلحة نفسها جديرة بأن تخلق مجتمعا حيا إذا لم تهبه الطبيعة تلك الروابط الدقيقة اللطيفة التى تنمو من داخل الناس وتكون هى وحدها العامل الأكبر فى تكوين الوحدة الاجتماعية .

إن من ألطف الأسرار الإنسانية التى كان لها أعظم الاثر فى توجيه مصير البشر منذ بدء الخليقة سر بديهى بسيط لايكاد أحد من الناس يجهله وهو أن الناس لايتحركون إلا بدوافع تنبعث من نفوسهم . هذا هو السر البسيط اللطيف الذى ينطوى تحت كل حركات البشر العظيمة فهو يكمن تحت حركة بنى إسرائيل إذ خرجوا من مصر وهو يكمن تحت حركة المصريين الذين خرجوا مع الملك العظيم أحمس ليكونوا دولتهم العظمى وهو الذى كان يسرى فى ثنايا السيول البشرية التى سارت وراء جنكيز خان وتيمور لنك وهو السر الفاعل فى حركة العرب الانسانية وفى الثورة الفرنسية وفى حركة التحرير فى أمريكا . ولو شئنا أن نعدد الحركات الانسانية التى كان ذلك السر اللطيف هو الدافع لها لأتينا على كل حوادث التاريخ الكبرى من تكوين الدول

وسقوطها ومن نمو المبادىء الجديدة وزوال المبادىء القديمة .

فأول خطوة فى سبيل كل حركة إنسانية هى تلك الحركة الخفية التى تنبعث فى نفس الافراد .

فإذا شئنا أن نقدم على إصلاح بغير أن نبدأ أولا بتحريك النفوس البشرية كان كل ما نبذله جهدا ضائعا مهما بذلنا فى سبيل إصلاحنا من قوة ومهما دعمنا تلك القوة بالوسائل المادية الجبارة .

ومن ثم كان دعاة الإصلاح الموفقون يبدأون دائما بإذاعة ثقافتهم الجديدة يلقون بها النور الى القلوب ليضيئها وينفثون فيها الروح لتحركها . فإذا ماتم لهم ذلك لم تكن الحركة المرجوة سوى نتيجة طبيعية سهلة تشبه انحدار الماء من قمة الجبل إلى مستقرها فى السهل .

وإنه لما يبشر بأعظم الخير المجتمع المصرى أن المطابع فى هذه الايام تبعث الى الناس موجة إثر موجة من ثقافة اجتماعية صالحة فان هذا ينم عن حركة مباركة فى المجتمع المصرى الذى يحس بنفسه ويريد أن يعرف الحقائق التى تقرر مصيره ويلتمس فى شىء من الحيرة أن يجد المواضع الحيوية التى يستطيع إذا بعث إليها الدم الجديد أن يظفر بالحياة القوية التى ينشدها .

وقد كان كتاب «الأسرة ومشاكلها الاجتماعية» الذى ألفه الأستاذ النابه لويس اسكندر واحدا من تلك الصيحات الجديدة المخلصة التى تبينت فيها هزة صادقة فى محاولة الكشف عن سر خطير من الأسرار

الاجتماعية التى تعمل على تماسك المجتمع وتقوية كتلته . لاشك فى أن المجتمعات الممدنة جميعها قائمة على نظام الأسرة . وقد حاولت بعض التجارب الثورية الحديثة فى فورة ثورتها أن تقلل من شأن الأسرة وأقامت نظامها الاجتماعى على أساس اقتصادى لايجعل للأسرة خطرها الأول ولكن تلك المحاولة الثورية لم تلبث أن عادت إلى الاعتراف بالأسرة وأنها وحده المجتمع وأنها الخلية البسيطة التى تتكون منها الأمة ، إذ قد ظهر لها أخيرا أن الدافع على وجود الأسرة ليس العامل الاقتصادى وحده بل أنها نظام طبيعى للانسان لا يستطيع الاستغناء عنه نفسيا إذا استطاع أن يستغنى عنه اقتصاديا .

فعناية الأستاذ مؤلف هذا الكتاب بالأسرة وموضعها من المجتمع لفتة نرى أنها لازمة لنا فى هذا العصر المقلقل الذى نحيا فيه . وهو فى مؤلفه هذا يلقى النور على طائفة من المسائل التى يحس بها الناس غامضة وهم يدركون خطورتها بالفطرة وقد استطاع أن يجلوها فى سهولة رائعة لايكاد القارىء يتبين معها ما فى نظراته من تعمق وتحليل .

ودرس نظام الأسرة وما يتعلق بها من مسائل إن كان ضروريا فى كل أمة لأنه أساس مجتمعها فهو أشد ضرورة لنا فى هذه الفترة من حياتنا القومية . فنحن نحيا اليوم فى عصر قد ألقيت فيه كل مخلفات الماضى فى البوتقة لتصهر مرة أخرى وتشكل شكلا جديدا يلائم ظروفنا المتغيرة ـ ولقد طرأ على الأسرة المصرية تغـــير عظيم منذ ربع

قرن وما زال إلى اليوم متجها فى وجهته يعرج أحيانا إلى اليمين وأحيانا إلى اليسار ولكنه سائر قدما إلى مداه . ولقد صرح كثير من دعاة الإصلاح ينبهون إلى ذلك التغير ويشفقون منه ويحذرون المجتمع من عواقبه . ولكن شيئا واحدا يجب أن نتبينه ـ يجب أن نتبينه ونتأكد منه ونطمئن إليه . وذلك أن الماضى لا يعود مهما بذلنا جهدنا فى إعادته .

لقد وجد الماضى لأن الظروف أوجدته ولذلك كان نتيجة طبيعية محتومة فى وقته ثم طرأ التغير فيجب علينا أن نسلم بأنه كذلك تغير طبيعى لأن الظروف قد حتمته وجرته علينا فالرجوع إلى الماضى يستلزم عودة ظروف الماضى جميعها وهذا ضد طبيعة الأشياء ومن العبث أن نطلبه ونطمع فى النجاح فى إرجاع عقرب الساعة إليه . إن العالم يسير دائما نحو المستقبل وهو دائم الحركة لا يعرف الوقوف . فاذا نحن سلمنا بهذه الحقيقة كان واجبا علينا أن نقنع بالنظر فى أحوالنا الحاضرة وفى آمالنا المستقبلة ونعمل على مناقشة نظمنا والعمل على الاتجاه بها مع ظروف الحاضر نحو تحقيق غاياتنا . ولنضرب لذلك مثلا . كانت المرأة فى الماضى كما يقولون كمية مهملة فى توجيه أمور المجتمع وكانت القواعد والعرف والرأى العام جميعا متفقة مع الثقافة القائمة على تنحية المرأة عن أمور الحياة العملية . ولكن المرأة المصرية اليوم تضرب بسهمها فى الحياة الاجتماعية بغير شك . ويمكن أن نقول على وجه البت إن الرأى العام والعرف الذى يسير المرأة المصرية

اليوم يكاد يكون نسويا صرفا . بل لقد صار رأى المرأة الاجتماعى فى أحوال الأسرة على مايبدو أقوى وأبلغ نفوذا من رأى الرجل . فإذا كانت هذه حقيقة كما يبدو لنا كان من العبث أن ننادى بارجاع المرأة إلى الأوضاع التى تعودها المجتمع المصرى عندما كانت هى منحاة عن تسيير شئونها . فإذا كان فى اتجاه المرأة اليوم مايؤدى بالمجتمع إلى ضرر كان الواجب أن تشترك المرأة فى الإصلاح وأن يكون لها القسط الأوفى من النظر فى المسائل الخاصة بها . لأنها مثل الرجل مسئولة عن قسطها فى هذا المجتمع ولا مناص من أن تكون شريكة للرجل فى حركة الإصلاح لتبين وجهة نظرها وتعاون بما يمكنها أن تقدمه من آرائها وجهودها .

وإذا كان الرجل فيما مضى هو سيد الأسرة فى كل الأمور ويتصرف فى أمور الحياة كلها تصرفا مستقلا وينظر إلى المرأة كأنها متاع يحتفظ به إذا شاء ويسقطه إذا بدا له ذلك فإنه اليوم مطالب بأن يغير وجهة نظره إذا أراد أن تقوم العلاقات فى الأسرة على أساس واضح صريح . فإن إصراره على وجهة النظر القديمة لا تؤدى إلى غير انشقاق الرجل عن المرأة وقيام هوة عميقة بينهما يسترها النفاق والكذب وتنمو تحت ذلك النفاق كل شرور التحلل والفساد وإذا كانت المرأة فى العصر الحاضر قد قطعت مرحلة كبرى فى سبيل إثبات وجودها الاجتماعى فانها بذلك تأخذ على نفسها عبئا من المسئولية

الاجتماعية كانت من قبل خفيفة منه .

فقد كانت من قبل تسير تبعا للرجل لارأى لها ولا وجود وليس من المعقول أن تطالب فى مثل تلك الحالة بمجهود إيجابى فى الحياة وأما اليوم فان تحررها يجعلها ملزمة بأن تشارك فى رسم الخطط وفى وضع الحدود وفى التزامها . هذا مايجب أن تسعى اليه وأن توجه النظر له وأن تذيع من الدعايات الثقافية ما يؤدى الى تحقيقه .

ولقد كان الأستاذ مؤلف هذا الكتاب صريحا وموفقا فى معالجة مسائل الأسرة وهو يتجه بآرائه إلى الرجل وإلى المرأة على السواء . وهو فى دعايته الاجتماعية يسلم بالظروف المتغيرة ويعتد بها وينظر إلى المستقبل وحده مع إدراكه لكل أصول ذلك المستقبل مما هو ماثل حولنا فى وقتنا الحاضر وما مضى علينا فى العصور السالفة وقد عالج المسائل التى جعلها موضوع هذا الكتاب بصراحة ولم يتقيد فى بحثه بفكرة سابقة إلا اذا اطمأن الى أنها فكرة سليمة تصلح لحياة اليوم . ولست أزعم أننى أوافقه فى كل ما ذهب اليه فى وسائل الإصلاح أو فى كفة التعليل . فإنه من الطبيعى أن أوافقه فى أمور كما أخالفه فى أمور أخرى ، ولست أزعم أنه على الحق كله فيما وافقته عليه أو أنه أخطأ حيث لم أوافقه ، ولكنى فى كل الأحوال رأيت فى كتابه محركا قويا لاثارة الرأى سواء فى حالة الموافقة أو المخالفة وحسب المؤلف أنه يستطيع أن يثير فى قرائه حركة الفكر ويكل الأمر بعد ذلك اليهم ليكون

كل منهم له رأيا . فليست الدعاية الثقافية بالأمر يلقى لكى يتلقاه القراء بالتسليم فى كل الأحوال بل أن أعظمها أثرا هو الذى يستطيع أن يثير من وجوه الخلاف بقدر مايثير من وجوه الموافقة .

فلأدع للقارىء المجال ليناقش المؤلف الفاضل وحسبى أن أقول انه سيجد فى قراءة مؤلفه ميدانا فسيحا للتفكير العميق ؟

محمد فريد أبو حديد

# الباب الأول

## الأسرة والمجتمع

## مركز الأسرة فى المجتمع

الأسرة هى جماعة من الناس ترتكز حياتهم منذ البدء على أساس جنسى له من القوة والدوام مايضمن للنسل وجوده وتنشئته ، بحيث يصبح الجميع وحدة اجتماعية قائمة بنفسها ، تتميز فى كل الجماعات الإنسانية مهما تباينت صفاتها بالخصائص الآتية : ــ

أولا ــ أن محورها العلاقة الجنسية .

ثانيا ــ أنها نظام اجتماعى يوطد هذه العلاقة الجنسية ويحددها .

ثالثا ــ أنها نظام ينطوى على انتساب جماعة من الناس إلى أصل معين .

رابعا ــ إنها علاقة اقتصادية بين أفراد يعيشون إلى حد كبير فى صعيد واحد ويعتمد الصغار منهم على كبارهم حتى يصبح فى مقدورهم تحصيل الرزق والاستقلال فى المعيشة .

ورغم أن هذه الصفات هى الأسس التى يقوم عليها بنيان الأسرة فى كل المجتمعات الانسانية ، إلا أن هناك تفاوتا كبيراً بين مجتمع وآخر فى نوع هذه الأسس ومدى قوتها أو ضعفها .

فالعلاقة الجنسية قد تكون دائمة ما دامت حياة الشريكين ، وقد تكون قصيرة الأجل . وقد يكون للرجل زوجة واحدة أو عدة زوجات وخليلات . كما أن المرأة قد تقتصر على زوج واحد وقد يتعدد أزواجها . وفى بعض البيئات تحدد الطبقة التى يمكن للفرد أن يختار زوجة منها بينما يكون الاختيار فى بيئات أخرى طليقا . وهناك جماعات ينتسب فيها الأبناء إلى أسرة الأب وجماعات أخرى ينتسبون فيها إلى أسرة الأم . كذلك هناك فروق كثيرة فى نظام التوريث فهناك بلاد تقضى تقاليدها أن يرث الابن الأكبر كل ثروة والديه وفى بلاد أخرى يوزع الميراث بالتساوى بين الأبناء أو يأخذ الذكر ضعف نصيب الأنثى وهكذا . غير أن هذه الفروق ، وإن تعددت واختلفت ، لا تغير من طبيعة الأسس التى يشيد عليها صرح الأسرة ويتوقف عليها كيانها .

وليس بين الجماعات والهيئات التى تظهر فى المجتمع الانسانى ما يفوق الأسرة فى قوة أثرها الاجتماعى ، فمهما اختلف مجتمع عن آخر فالأسرة هى محوره ، ومهما حدث من انقلاب فى الأوضاع الاجتماعية والأنظمة السياسية فالأسرة باقية خالدة ما دام المجتمع . ولم يحدث فى تاريخ البشرية أن وجد مجتمع دون أن تكون الأسرة هى لحمته وسداه ، كما لا يمكن أن تقوم فى المجتمع هيئة تربط أفرادها

وشائج أقوى من تلك التى تشد أفراد الأسرة بعضهم إلى بعض . فهذه من نسيج الطبيعة الانسانية وأداتها الميل الجنسى وحب النسل وحدب الأمومة والعطف الأبوى ، وحب المحافظة على الجنس والفخر بالعصبية ، والرغبة فى الحياة المنزلية الآمنة ، وغريزة الملكية ، إلى غير ذلك من شتى المشاعر التى تنغلغل فى صميم الحياة وتشمل شتى نواحيها .

والاسرة هى أول بيئة اجتماعية ينشأ فيها الفرد ويرث عنها الكثير من مميزاته الجثمانية والعقلية وعاداته وخلقه . ولذا يرجع إليها السبب فى تلك الفروق التى تظهر بين الأفراد ، وهى التى تسم أبناء الأمة الواحدة بطابع يميزهم إلى حد كبير عن أبناء الأمم الأخرى - ورغم أن الأسرة هى أصغر الهيئات الاجتماعية وأبسطها إلا أنها نواة لكل ما عداها من جماعات قائمة داخل نطاق المجتمع . وهى بالغة الاثر بين القبائل المتأخرة ، حيث يعيش الفرد وفقا لتقاليد أسرته لا يستطيع عنها حيادا — كما يظهر ذلك الاثر واضحا جليا فى الريف حيث تسيطر أنظمة الاسرة على حياة الفرد سيطرة عظيمة .

والاسرة تحتم على أفرادها واجبات يلتزمونها حيال بعضهم بعضا بصورة لا توجد فى أية هيئة أخرى ، وهم يؤدونها راغبين أو كارهين . فقد يعمل الفرد لوطنه أشق الاعمال فى أزمة من الازمات ، غير أنه يسعى لخدمة أسرته ما بقى فيه نفس يتردد ، ويتحمل فى سبيل سعادتها

أجسم المسئولية ، ويضحى لرفاهيتها بأنفس ما يملك . ولعظم أهمية الاسرة تشملها الدولة برعايتها ويحوطها العرف والشرائع بأمتن السياج . فعقد الزواج يربط الشريكين أحكم الرباط ، تحميه القوانين الوضعية والسماوية ولا يستطيع أحد المتعاقدين تبديل بنوده وشروطه. وهو التعاقد الوحيد الذى يرتبط به الفرد غير مرغم ، ولكنه لا يملك التحرر منه إلا فى أقسى الظروف وأشدها .

وكلمة « الاسرة » تطلق عادة على شيئين مختلفين ، فهى إما يقصد بها الاسرة الفردية التى تتكون من زوجين وأبنائهما وهذا هو المعنى الضيق . وإما يقصد بها الافراد الذين ينتسبون جميعا إلى أصل واحد. وفى هذه الحالة يكون المعنى أكثر اتساعا ويدل على عدة أسر فردية متعاقبة لا أسرة واحدة .

والأسرة الفردية تمر فى أربع مراحل : الأولى هى فترة الخطبة أو التمهيد للزواج ، وفيها يرسم الرجل والمرأة صورة عامة لحياة الأسرة المستقبلة تجرى عليها ريشتهما بشتى الألوان والخطوط . والمرحلة الثانية هى التى تلى الزواج وتسبق مجىء الذرية وفيها يتم بناء العش ويترقب الزوجان نوعا جديدا من الحياة . ثم تجىء المرحلة الثالثة وهى وجود الذرية ، تلك الفترة التى تتفتح فيها العيون إلى حقائق العالم وماديا ته بعد أن يهبط الزوجان إلى عالم الواقع ، فتتحقق بعض الأحلام وتنهار الأخرى ، وينشغل الوالد والأم فى تربية الأبناء ملاقين فى

سبيل ذلك شتى المصاعب والآلام الحلوة . ثم تأتى بعد ذلك المرحلة الرابعة والأخيرة وهى المرحلة التى ينضج فيها الأبناء ويستقلون عن آبائهم مكونين بذلك أسراً فردية أخرى . وبذلك تنتقل شعلة الحياة من يد إلى أخرى لتظل مضيئة من جيل إلى جيل وإن احترقت الأيدى التى تقبض على هذه الشعلة يدا بعد يد .

وليس معنى هذا أن كل أسرة تمر بهذه المراحل الأربعة بل قد تقتصر على واحدة أو اثنتين منها ، فيخبو ذلك الضوء وتنطفىء الشعلة قبل الأوان وتحدث المأساة التى تغير مجرى حياة الأسرة وتثير شتى المشاكل الاجتماعية .

* * *

## الأسرة قديما

يعتقد بعض العلماء المشتغلين بتتبع تاريخ الإنسان أنه وجد عصر لم تكن فيه أسرة بالمعنى الذى نفهمه ، بل كانت هناك إباحية جنسية . ويدللون على هذا الرأى بما يشاهد الآن فى بعض القبائل المتأخرة من شيوع عادات إباحة الاختلاط الجنسى فى المواسم والأعياد ، وإعارة الزوجة للضيف وتبادل الزوجات وغيرها من العادات التى تبدو كأنها مخلفات لعصر كانت الإباحية فيه مطلقة . غير أن هذه النظرية لا نصيب لها من الصحة لأن البحث الاجتماعى أثبت أن الأسرة كانت ولا تزال

قائمة بين أكثر القبائل والجماعات انحطاطا ؛ وأنها محوطة بالكثير من التقاليد التى تحفظ كيانها وتعزز مركزها . أما مظاهر الإباحية التى تبدو بين بعض القبائل المتأخرة فى بعض الظروف فما هى إلا عادات وتقاليد اجتماعية لا تنافى وجود الأسرة كوحدة للمجتمع ، لأن وجهة نظر الفرد نحو العفة تختلف باختلاف المجتمع . فسكان القرية يعتبرون تبرج النساء مثلا كبيرة من الكبائر بينما سكان المدن ينظرون إلى المرأة التى لا تتزين كأنها متأخرة ـ والشرقيون بوجه عام ينظرون إلى اختلاط الجنسين فى أوروبا نظرة لا تخلو من السخط والاحتقار ، غير أن هذا الاختلاط لا يتبعه فى تلك البلاد عدم وجود الأسرة .

وعلى هذا فنى مقدورنا أن نقرر أن الأسرة هى نظام راسخ يوجد فى كل المجتمعات متأخرة كانت أو متقدمة ، وأننا مهما رجعنا القهقرى إلى عصور التاريخ المسطور أو غير المسطور وجدنا أن الأسرة هى الحجر الأساسى للمجتمع ، بل قل إنها المجتمع الأول .

ولقد حاول بعض علماء الاجتماع أن يرجعو قيام الأسرة فى المجتمع إلى أصول وأسباب ، فقال دارون إن نشأة الأسرة ترجع إلى غريزة السيطرة فى الرجل الأول وغيرته على ما يمتلك ، مما دفعه إلى المحافظة بالقوة على المرأة التى اغتصبها ، وبمرور الزمن أصبحت الأسرة نظاما ثابتا يتمتع فيه الرجل بالمركز الأول ويرى العالم وسترمارك نفس الرأى . ويذهب العالمان إلى أن الزواج الأول اقتصر على امرأة واحدة

للرجل ، وأن المحافظة على الزوجة هو مظهر من مظاهر غريزة الملكية . ولكننا نرى أن هذه الغريزة رغم مالها من عظيم الأثر فى حفظ كيان الأسرة ، إلا أنها لاتكفى وحدها لتفسير وجود نظام اجتماعى مركب كهذا .

ويرى العالم بريفو Briffault أن النظرية السابقة لاترتكز على أساس من الصحة بدليل وجود كثير من الأسر بين القبائل المتأخرة فيها تتمتع الزوجة بنفوذ يفوق نفوذ الرجل ، وبدليل انعدام الغيرة الزوجية وعدم تقدير العفة فى كثير من الجماعات الهمجية . وهو يقرر أن قيام الأسرة يرجع إلى رغبة المرأة فى الاعتماد على الرجل من الوجهة الاقتصادية ونجاحها فى استغلال الميل الجنسى عنده لاجتذابه نحوها وإنفاقه عليها وعلى ذريته منها . وهو لذلك يعتقد أن النوع الاول من الأسرة هو ذلك الذى تكون المرأة فيه أكثر نفوذا من الرجل وبخاصة أن الرجل فى الجماعات التى كانت تشتغل بالصيد ، وهو مهنة الانسان الأول ، كان كثير التغيب عن مسكنه سعيا وراء الرزق ، وهذا أفسح المجال لظهور نفوذ المرأة فى الأسرة .

ولكن بعد أن اشتغل الانسان بالزراعة وأصبح أكثر استقرارا وأقل ابتعادا عن المنزل . بدأ يتغلب على المرأة ويكتسب لنفسه مركزا ممتازا . وهذا المذهب على وجاهته لا يكفى لتفسير قيام الأسرة ويدحضه أن نفوذ الأب فى كثير من الجماعات المتأخرة من سكان

استراليا الأصليين يفوق نفوذ الأم . بينما نجد بين هنود أمريكا الحمر وهم أكثر من سكان استراليا الوطنيين تقدما جماعات من تقاليدها أن تكون الأم هى صاحبة السلطة وأن الأبناء ينتسبون إلى أسرتها لا إلى أسرة أبيهم .

وفى الواقع إنه من الخطأ أن نحاول تحديد بدء معين الأسرة أو إيجاد أى تعليل واحد لقيامها فانه لم يوجد عصر من العصور لم يكن نظام الأسرة فيه معروفا فى صورة من الصور . كما أنه من الخطأ أن نظن أن قيام الأسرة هو استجابة لنداء غريزة واحدة من الغرائز الإنسانية . كذلك لا يصح أن نعتقد أن الأسرة ظهرت فى شكل معين واحد تدرج إلى أشكال أخرى . بل الأصح أن نقرر أن الأسرة هى نظام اجتماعى معاصر للانسانية بدأ منذ اللحظة الأولى وينتهى بانتهائها ، وأنها من ناحية أخرى وليدة غرائز كثيرة وحاجات ملحة كمينة فى النفوس البشرية تتأصل جذورها فى صميم حياة الإنسان.

فهناك فى المحل الأول تلك الغريزة الجنسية التى تدفع الإنسان إلى محاولة إشباعها على أساس متين فى حرز من الأهواء والمنافسة الجنسية الطليقة ، تلك الغريزة التى ينشأ عنها شتى العواطف والمشاعر التى تربط الرجل والمرأة وتدفعهما إلى الحياة المشتركة . وهناك الرغبة فى النسل وغريزة الأمومة التى تتجلى فى المرأة بأوضح صوره ، وتتخذ عند الرجل مظاهر شتى أهمها الفخر بالعصبية وحب المحافظة على

الجنس والرغبة فى وجود خلف يرث الاسم والمتاع ، ويعاونه فى عمله ويشد أزره عندما ينحدر إلى الشيخوخة . وهناك إلى جانب ذلك العامل الاقتصادى الذى يدفع الرجل إلى محاولة العثور على المرأه التى تقوم بنصيبها فى اقتصاديات الأسرة وتشرف على شئون المنزل . ولا يقل عن هذا كله فى الأهمية أن الاختلاط الجنسى بين الرجل والمرأه ينجب أطفالا يثير وجودهم مشاكل لا سبيل لحلها إلا بقيام الأسرة .

كل هذه المشاعر والغرائز هى التى دفعت الإنسان منذ أقدم العصور ، ولاتزال تدفعه ، إلى تكوين الأسرة والمحافظة عليها .

* * *

## أنواع الأسرة

يدل البحث الاجتماعى بين الجماعات المتأخرة المعاصرة ، والتى تمثل إلى حد كبير حالة الانسان فى العصور القديمة ، على أن هناك نوعين من الأسرة : الأول هو الأسرة التى تخضع لنفوذ الام، والثانى هو التى تخضع فيه لنفوذ الاب . وليس معنى ذلك أن هذا النوع أو ذاك هو الذى ظهر أولا ثم تلاه ظهور الآخر ، بل الذى نقصده أن الجماعات القديمة كانت تتبع أحد هذين النوعين أو نوعا آخر يجمع بين صفات الاثنين .

ويتميز النوع الاول بالخصائص الآتية :

أولا — أن الابناء ينتسبون إلى الام لا إلى الاب

ثانيا — أن الاب لايكون صاحب الامر فى الاسرة بل تتركز السلطة فى أحد أقارب الام كأخيها ، كما هى الحال بين قبائل الهنود الحمر فى مقاطعة « أوماها » أو أبيها كما يوجد بين بعض القبائل التى تسكن هضبة لبرادور .

ثالثا — أن القبيلة التى تتبع هذا النظام تنقسم عادة إلى عشيرتين يجب على الفرد المنتمى إلى واحدة منها أن يتزوج من فتاة من العشيرة الاخرى ويحرم عليه الزواج من فتيات عشيرته .

أما النوع الثانى من الاسر فهو الذى تكون فيه الاسرة خاضعة لنفوذ الاب وهو النوع الذى كان سائداً فى دول العصور القديمة والوسطى التى كانت تتمتع بقسط وافر من المدنية القائمة على الزراعة والملكية. وهذا النظام الاجتماعى يجعل من الاسرة وحدة اجتماعية متماسكة يتجمع فيها النفوذ فى يد الاب . والمجتمع الذى يتبع هذا النظام يكون مكونا من عدة أسر فردية ينتسبون جميعا إلى جدواحد يتمتع بالسطوة والسلطان ، فهو الذى يرأس الحفلات الدينية ويحرس آلهة الاسرة .

وقد جاء فى كتاب القوانين الصينية القديمة المسمى « لى كى » ( LiKi ) أن المرأة كانت تخضع لثلاثة سلطات متتالية الاولى سلطة

الوالدين والثانية سلطة الزوج والثالثة سلطة الابن إذا مات الزوج، وهذا يظهر لنا نفوذ الرجل فى مثل هذه المجتمعات . وشيخ القبيلة أو الجد الاكبر للأسرة هو الذى يشرع القوانين ويقضى فى الخصومات وينفذ الاحكام ؛ أو بعبارة أخرى هو السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية ؛ يعاونه مجلس مكون من أرباب الاسر الفردية .

ولرب الاسرة فى مجتمع كهذا سلطة مطلقة على أبنائه حتى إذا جاوزوا سن الرشد ، ففى فلسطين القديمة كان من حق الوالد أن يبيع ابنته . وفى روما القديمة كانت المرأة فى حالة خضوع تام للرجل ، فلم يكن من حقها أن تملك شيئا أو تقاضى زوجها . وكان اليهود القدماء يخولون الرجل فقط حق طلاق امرأته دون أن يكون للمرأة مثل هذا الحق .

والحق أنه فى كل المجتمعات الممدن التى أخذت بهذا النظام لم يكن المرأة نصيب فى الحياة العامة ولم تنل أى قسط من التعليم سوى ما كان خاصا بإدارة المنزل . ففى أثينا القديمة كان على الزوجة وبناتها أن يعتزلن فى مقصوراتهن ولا يغادرن المنزل إلا بإذن من الاب ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن نظام الاسرة فى مصر وبخاصة فى القرى تظهر فيه جليا سلطة رب الاسرة على هذا النحو .

وفى تاريخ قدماء المصريين ما يدلنا على انحطاط مركز المرأة عن الرجل وسيطرته عليها ؛ إذ جاء فى نصائح الحكيم «بتاح حتب» حوالى

سنة ٣٣٥٠ ق . م هذا القول موجها للرجل .

« إذا كنت عاقلا فاعتن بمنزلك ووفر لزوجك الطعام ، وألبسها أحسن الثياب وقدم لها وسائل التزين فإنها متاع جدير بالاقتناء» ومن هذه النصيحة نستنتج أن المرأة كانت تعتبر متاعا للرجل وأنها كانت خاضعة لسلطانه . ويحدثنا التاريخ أيضا أن أغنياء المصريين القدماء كانوا يقتنون الخليلات إلى جانب الزوجة ويسكنوهن جناحا خاصا من المنزل . وقد وجدت العبارة الآتية مسطورة على إحدى أوراق البردى على لسان زوجة تشير إلى إحدى الخليلات : —

« لقد أصبحت تضع أطفالها على الوسائد الفخمة . تلك التى دخلت الدار دون معطف يسترها فأصبحت سيدته . تلك التى كانت تنظر وجهها فى البرك فأصبحت لها مرآة معدنية » .

وهذا الاكثار من النساء يرينا أن الرجل كان يعتبر المرأة وسيلة للتعة الشخصية أكثر منها شريكة للحياة .

ويروى ديودور الصقلى أن الزانية عند قدماء المصريين كانت تقطع أنفها أما الزانى فكانوا يكتفون بضربه ، وهذا يدل أيضا على عدم مساواة المرأة للرجل فى الحقوق .

* * *

## الأسرة فى طريقها الى العصر الحديث

لقد بادرت أوروبا إلى الاخذ بأسباب المدنية الحديثة قبل الشرق وفى مقدورنا أن نقرر أن انجلترا كانت أسبق دول أوروبا إلى النهوض، ومع ذلك كان مركز المرأة فى الاسرة الانجليزية فى القرن الثامن عشر مما لاتحسد عليه . فلم يكن لها نصيب فى الوظائف العامة إلا إذا كانت صاحبة التاج ، ولم يلن من حقها أن تمتلك إلا القليل فيما عدا ذلك النصيب من أملاك الزوج الذى ينتقل إليها بعد وفاته . وكان القانون يعتبرها قاصرا . وعلى هذا كانت الاسرة فى ذلك العهد وحدة اقتصادية اجتماعية يشرف عليها الزوج .

ولم يكن شأن الاسرة فى أمريكا فى ذلك العصر يختلف عن النحو السابق ، فقد كان القانون ينص على أن واجب المرأة هو خدمة زوجها وطاعته . وكان لرجال الدين سيطرة عظيمة على حياة الاسرة ، بحيث إذا تحققوا من ارتكاب الزوجة لجريمة الزنا كان لهم أن يحكموا بقتلها . وفى الاستطاعة أن نؤكد أن الشريعة الموسوية وما انطوت عليه من خفض لمركز المرأة كانت تطبق فى أمريكا وانجلترا حتى نهاية القرن الثامن عشر .

وفى سنة ١٧٩١ نشرت سيدة تدعى مارى ولستونكرافت كتابا

عنوانه « الدفاع عن حقوق المرأة » طالبت فيه بوجوب منح المرأة قسطا وافرا من التعليم حتى تستطيع أن تساهم فى النشاط العام . وقد هاجمت فى هذا الكتاب آراء روسو الواردة فى رسالته ( إميل ) عن تعليم المرأة ، حيث يقول إن المرأة وقد خلقت لتكون وسيلة لمتعة الرجل يجب أن يوجه تعليمها إلى هذه الغاية .

تلك هى وجهة نظر المجتمع نحو المرأة فى القرن الثامن عشر وهى لا تختلف فى قليل أو كثير من وجهة النظر المصرية القديمة ممثلة فى نصائح الحكيم « بتاح حتب » كما قدمنا .

غير أن الاحداث السياسية الاقتصادية الهامة التى صحبت القرن التاسع عشر كان لها بالغ الاثر فى الحياة الاجتماعية عامة وفى مركز المرأة والاسرة بوجه خاص . فمن الوجهة الاولى ضعف نفوذ الكنيسة وما كانت تحتمه من وجوب خضوع المرأة للرجل وضرورة اعتزالها الحياة العامة . ومن الناحية الثانية انتهى نظام الاقطاع الذى يقسم المهن الشريفة إلى ثلاثة أنواع فقط هى أصحاب الارض ورجال الدين والمحاربون ، وبذلك توضع المرأة وما تقدم به من أعمال داخل نطاق الاسرة فى مركز لا قيمة له من الوجهة الاجتماعية .

وقد كان لهذه التغيرات الدينية والسياسية أثر فعال فى تبدل مركز الاسرة الاجتماعى . فلم يعد لعميد الاسرة ذلك النفوذ السابق على أبنائه وزوجه . وبخاصة بعد أن أصبحت قوانين الدولة وشرائعها تحدد العلاقة

بين الرجل وأبنائه . وبعد أن أخذت المحاكم على عاتقها النظر فى الخصومات والقضايا التى كان من حق عميد الاسرة أو شيخ القبيلة وحده أن يقضى فيها فى العصر السابق كما وضحنا قبل الآن . وبهذا تضاءلت الفكرة التى كانت سائدة إلى ذلك العهد وهى أن الاسرة نظام سماوى وأن قوانينها تشريع إلهى .

وقد صحب هذا التغير فى نفوذ الاسرة مظهر آخر من مظاهر التحرر من سلطة الاسرة . ألا هو حرية اختيار الابن لزوجته . فقد كان الأب قبل ذلك يفتق لابنائه زوجاتهم رائده فى ذلك الصلف والرغبة الشخصية . أو تحقيق غنم مادى أو الخروج من مأزق مالى إلى غير ذلك من شتى الاعتبارات التى تمس شخص الاب دون الابناء .

أما وقد بدأت مظاهر الحرية فى القرن التاسع عشر تبدد غيوم الظلم والاستبداد فقد بدأ الابناء يؤسسون زواجهم على العاطفة بغض النظر عن رأى الاسرة ـ وفى هذا تقديس للعلاقة بين الرجل والمرأة وابعادها عن أهواء الاسرة وميولها واعتداد بالشخصية . ولا ريب أن أسرة فردية ترتكز على هذه الاسس يجب أن يختلف وضعها الاجتماعى عن أسرة لا يتحرك أفرادها إلا باذن الاب ووفقا لمشيئته . فى الحالة الاولى يكون الاستقلال الفردى وقوة الشخصية ، وفى الحالة الثانية يكون الخنوع والتواكل وضعف الشخصية . تلك الصفات التى لا يمكن أن تنشىء جيلا فتيا ناهضا أبيا .

ولقد شهد القرن التاسع عشر انقلابا اقتصاديا ليس له نظير فيما سبق من عصور — ذلك هو الانقلاب الصناعى الذى حول دول أوروبا الواحدة بعد الاخرى من حالة الزراعة إلى حالة الصناعة . ولقد استلزم هذا التحول فى المهنة الرئيسية ، وما يتبعه من تغير فى أساليب الإنتاج ، انتقال الفلاحين من القرى . حيث كانوا يعيشون على زراعة الارض تربطهم إلى بعضهم أقوى روابط الاسرة ، إلى المدن الصناعية حيث سكنوا إلى جوار المناجم والمصانع . ولم يكن من الطبيعى أن ينتقل كل أفراد الاسرة من القرية إلى المدنية حيث يتابعون حياة الالفة والاتصال بل تفرق الشمل واشتغل فرد هنا وآخر هناك وبذا تفككت عرى الاسرة وضعف نفوذها على أعضائها .

ولم يكن هذا كل ما حدث فى نظام الاسرة وبنائها من تغير ، بل الاكثر من ذلك أن الصناعة احتضنت بين ذراعيها النساء والاطفال فخرجت المرأة رويدا إلى ميدان الحياة تعمل وترتزق ، وبذلك تحررت من سطوة الاب والزوج وأصبح لها كيان اجتماعى مستقل وانهارت الاسطورة القديمة القائلة بأن الرجل قد خلق للعمل خارج الدار كما خلقت المرأة للمنزل . ولقد نجم عن ذلك أن اختلفت وجهة النظر نحو الفضائل القديمة وأصبحت المرأة أقل تقديرا للعرف والتقاليد التى كانت سائدة من قديم . وفى نفس الوقت بدأت المرأة تتلمس طريقها نحو الحرية الفردية وتطالب بنصيبها من التعليم والحياة العامة .

وجاهدت فى سبيل نيل حقوقها المهضومة حتى ظفرت بجلها إن لم يكن كلها — وبالمثل خرج الأبناء بعيدا عن نطاق الأسرة فضعفت الرقابة عليهم ونمت فيهم روح الاستقلال والاعتماد على النفس — وعلى هذا يمكن القول إن هـــذه التغيرات الاقتصادية الهائلة رغم قضائها على وحدة الأسرة القديمة وتماسكها ، فإنها قد أيقظت فى الناس روحا كانت خامدة ، وهى روح الاستقلال والاعتداد بالنفس. وبعد أن كان الباعث على الفضيلة الخوف من سلطة الأب أو عميد الأسرة أصبح الباعث هو الاقتناع الشخصى بأن الاستقامة خير من الاعوجاج

* * *

## التغيرات الحديثة فى وظيفة الأسرة وبنائها

من أهم الوظائف التى تقوم بها الأسرة العمل على بقاء الجنس البشرى . فالزواج قد قصد به قبل كل شىء إيجاد الذرية ، والأسرة هى ذلك النظام الذى يرمى إلى العناية بهذه الذرية وتهيئتها للعالم بحيث تكون صالحة هى الأخرى للقيام بنفس الدور . وهكذا تسير قافلة الإنسانية من عهد إلى عهد ومن جيل إلى آخر ، وما الناس فى هذه القافلة إلا حملة لمشاعل الحياة . ولقد طرأ على هذه الوظيفة الاجتماعية للأسرة تبدل حديث نجمله فيما يلى : —

أولا : قامت فى العصر الحديث هيئات اجتماعية منظمة تساعد الأسرة على القيام بوظيفتها الأساسية ، ألا وهى المحافظة على الجنس

كدور الأمومة ومراكز رعاية الطفل ورياض الأطفال . مثل هذه الهيئات تخدم غرضين فى وقت واحد : الأول مساعدة الأم التى تعمل خارج الدار لكسب عيشها على تربية الأطفال ، إذ أن مثل هذه الأم لاتستطيع أن تصحب أطفالها معها إلى مكان العمل ، وليس فى مقدورها أن تتركهم فى المنزل دون رعاية . أما الثانى فهو تزويد الأمهات بالنصائح والإرشادات الصحية وإمدادهن بالأدوية الواقية من شتى أمراض الطفولة التى تفتك بالأطفال فتكا ذريعا ، فيموتون أو تصيبهم العلل التى تعرقل نموهم الطبيعى وتعجزهم عن الانتاج فى المستقبل .

ثانيا : اتجهت أفكار الحكومات والهيئات التعاونية والنقابية إلى مساعدة الأسرة من الوجهة المادية ، إذ لم تعد الأسرة تلك الوحدة الاقتصادية المستقلة التى يلتزم أفرادها بمساعدة بعضهم بعضا كما كانت الحال من قبل . وقد اتخذت هذه المساعدات المادية أشكالا مختلفة، ففى نيوزيلاند والدانيمرك وكندا يعطى الأمهات معاشا . وفى انجلترا وألمانيا والنمسا وكثير من دول أوروبا نظام للتأمين الاجتماعى تشترك فيه الدولة ، ينطوى على تأمين الأسرة ضد المرض والعجز والبطالة وكبر السن . وفى فرنسا يعطى العمال أصحاب الأولاد أجورا تتناسب مع عدد أطفالهم . وسنتناول هذا الموضوع فى شىء من الاسهاب فيما بعد . ويجدر أن نشير هنا إلى أن هذه الانظمة لم يقصد بها أن تحمل الدولة عن الاسرة وظيفتها الاجتماعية الرئيسية بل تساعدها على تأدية

هذه الوظيفة على الوجه الاكمل .

ثالثا : نقصت نسبة المواليد عن ذى قبل . وهذا الاتجاه الحديث هو أعظم التغيرات أثرا فى مستقبل الأسرة . فقد لوحظ منذ منتصف القرن التاسع عشر نقص ملموس فى نسبة المواليد يختلف فى دولة عن أخرى . وفى كل دولة على حدة شوهد أن الطبقات الغنية تأثرت به أكثر من الفقيرة والمتعلمة أكثر من الجاهلة . كما أنه انتشر بين الأسر التى يعمل نساؤها بعد الزواج لكسب العيش . ورغم هذا التفاوت بين الطبقات كان هذا الاتجاه عاما يسير مع تقدم المدنية جنبا إلى جنب حتى كأنه مظهر من مظاهرها المتعددة . وقد صحب هذا النقص فى المواليد نقص مقابل فى نسبة الوفيات وبخاصة بين الأطفال نظرا إلى تقدم أساليب العلاج وطرق مكافحة الأمراض . فاذا سار هذا النقص فى النسبتين فى توافق وانسجام فانه ينتج اقتصادا هاما فى الحياة الانسانية والصحة والجهد . ويزيد فى مقدرة الأسرة على تربية جيل جديد . إذ من العبث أن تنجب الأسرة أطفالا عديدين يموت أكثرهم فى مرحلة الطفولة بعد أن يتكبد الوالدان شتى المصاعب فى تربيتهم - وسوف نبسط القول فى هذا الموضوع عند الكلام على مشاكل الأسرة الحديثة .

ولم يقف البناء القديم للأسرة جامدا فى وجه التغيرات الحديثة التى أصابت وظيفة الأسرة على النحو الذى قدمنا بل انتابه من التبدل

قدر كبير . فى المقام الأول أصبح عقد الزواج اختياريا لا يفرض على الزوج أو الزوجة فرضا كما كان الحال فيما مضى من الزمان . وإذا كان فى هذا تحرير للرجل فى اختيار زوجته فهو يعتبر حدثا عظيما فى تاريخ تحرير المرأة التى لم يكن لرأيها فى الزواج من قبل أى وزن ، بل كان ينظر إليها كسلعة يبيعها الأب ويشتريها الزوج - وما المهر الذى يدفعه الزوج الآن فى بلادنا إلا ثمن تلك السلعة ، ومظهر من مظاهر عصر هضمت فيه حقوق المرأة وسلبت حريتها .

وقد قدمنا أن المرأة قد استردت خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين فى كثير من دول العالم أغلب حقوقها المهضومة وأصبح لها كيان اجتماعى وسياسى لا يكاد يختلف عن كيان الرجل ، وذلك بفضل خروجها إلى ميدان العمل ووصولها الى مركز اقتصادى هام أيقظ فيها روح الشعور بأهميتها فى المجتمع - ولذا أصبحت الفتاة الآن تقرر بنفسها نوع الحياة التى تحب أن تحياها كما أصبح لها الرأى الأول فى اختيار شريك حياتها .

ومن آثار التغير فى بناء الأسرة ، إلى جانب هذه الحرية فى اختيار الشريك ، تضاؤل أهمية المظهر الدينى لعقد الزواج . فقد كانت الشعائر الدينية قبلا هى أهم ما يصطبغ به التعاقد ، وكانت الكنيسة فى أوروبا هى التى تقرر شرعية الزواج أو عدم شرعيته ، كما كانت هى المرجع الأخير فى التصريح بالطلاق أو رفضه . أما الآن فقد أصبح التعاقد

مدنيا قبل كل شيء وإن أحيط بهالة من الشعائر الدينية ، كما أصبح تقرير الطلاق مايتبعه من نتائج من الأمور التى تقرر أمام القضاء . وماذلك إلا لأن الدولة أصبحت تنظر إلى شئون الأسرة نظرة الوصى الحارس ، وترى من حقها أن تشرف الاشراف كله على تلك النواة التى ينسج حولها نسيج المجتمع .

ويمكننا القول الآن إن المدنية الحديثة سائرة بالأسرة فى طريق التخصص . ذلك المظهر الذى يتميز به عصرنا هذا . ففى الأزمنة القديمة كانت الأسرة وحدة اقتصادية شبه مستقلة تنتج لنفسها جل ما تحتاج اليه ، وتشرف على شئون أعضائها من الوجهة الدينية والاجتماعية ، أما الآن فقد أصبحت المصانع تمد الفرد بكل مايحتاج اليه من مواد الملبس والمأكل والمسكن ، وبذلك كادت تتلاشى أهمية الأسرة من الناحية الاقتصادية . كما أصبحت المدارس تقوم بتعليم الأبناء على أكمل وجه ، والمستشفيات والمصحات والملاجىء ترعى المرضى وكبار السن وأصحاب العاهات بطريقة لم يكن فى مقدور الأسرة قديما أن تدانيها وبالمثل أصبحت الحياة فى المدينة توفر على أفراد الأسرة مجهودات كانت تبذل فى الكثير من الأمور . فالمنازل مزودة بالمياه والنور ، والخبز يصل إلى المستهلكين دون عناء ، والملابس تنظف فى أماكن خاصة جهزت لهذا الغرض ، والمطاعم تقدم للفرد كل ما يطلب من طعام . وبعبارة أخرى أعفيت الأسرة من أكثر الوظائف والأعمال

التى كانت تؤديها فيما مضى من الزمان والتى كان فى تأديتها إهمال لتلك الواجبات الرئيسية التى خلقت الأسرة من أجلها . تلك الواجبات التى يعتبر أى تقصير فى أدائها هدما للبناء الاجتماعى .

* * *

## الوظائف الرئيسية للأسرة الحديثة

أهم ما تقوم به الأسرة الحديثة من واجبات هى :

أولا : العمل على بقاء الجنس البشرى . وهذا من وجهة نظر المجتمع أهم الوظائف ، غير أنه من وجهة نظر الوالدين يشبع فيهما غريزة حب الذل وعاطفة الأبوة والأمومة .

ثانيا — إشباع الغريزة الجنسية إشباعا منتظما مقدسا .

ثالثا — إيجاد ذلك المسكن الذى تأوى اليه أفراد الأسرة ويشعرون فى داخله بالراحة والاطمئنان من الوجهتين المادية والمعنوية .

وليس المقصود من هذا أن الاسرة هى الوسيلة الوحيدة لبلوغ أى غرض واحد من هذه الاغراض ، بل الذى نقصده أن الاسرة هى النظام الوحيد الذى يحقق هذه الاغراض الثلاثة معا على الوجه الاكمل ويجعل بينها توافقا وانسجاما .

فإشباع الغريزة الجنسية لا يصبح فى الاسرة هدفا منفصلا عن باقى

الأهداف بل تقترن به عاطفة الإخاء والمودة والصداقة بين الشريكين وعلى هذا النحو ينسجم الغرض الاول والثانى . وتربية الأبناء ترتبط بحب المنزل والعمل على جعله ملجأ آمنا يشعر فيه المرء بالاستقرار والهدوء . وبهذا يرتبط الغرض الاول والثالث . ولاشك أن نجاح الأسرة يتوقف على قدرتها على خلق الاتساق بين هـــذه الوظائف الثلاث ، كما أن المجتمع الناهض هو الذى يسعى إلى تمكين الأسرة من تأدية كل واجب من هذه الواجبات على حدة ، وتأديتها جميعا كوحدة مرتبطة الاجزاء .

أما العمل على بقاء الجنس البشرى وهو الوظيفة الاولى فلا تختلف فيها الاسرة الحديثة عن الاسرة القديمة . غير أن تقدم المدنية قد ساعد الاسرة على تحقيق هذا الغرض الآن أكثر من أى زمن مضى وذلك لتحسن وسائل الصحة وطرق مكافحة أمراض الطفولة ، وقيام شتى الهيئات الاجتماعية التى ترشد الاسرة إلى أحدث أساليب التربية الصحيحة . والدليل الملموس على هذا هو نقص نسبة الوفيات كما قدمنا . ومن البديهى أن انتشار التعليم جعل الآباء والامهات يشعرون بمسئوليتهم العظمى نحو أبنائهم ، ويقدرون كل التقدير أن العناية بالاطفال هى خدمة للمجتمع بالغة الاهمية ، وأن التقصير فى هذا الواجب هو جريمة فى حق أوطانهم لا يمكن أن ان تغتفر .

أما إشباع الغريزة الجنسية فهو وظيفة تؤديها الاسرة الحديثة بصورة أكثر نبلا من قبل ، وذلك لأن اختيار الزوج لزوجته أصبح الآن فى أكثر الاحوال مبنيا على حب متبادل بين الرجل والمرأة ، وعلى صفات وفضائل فى كل من الشريكين تروق فى عين الآخر، وبذلك تسمو الغريزة الجنسية وترتكز على أسس روحانية تجعلها أكثر ثباتا وأعظم أثرا .

أما الأسرة القديمة التى لم يكن للاختيار الشخصى نصيب يذكر فيها فقد كانت العلاقة الجنسية فيها مشوهة مزعزعة ، ولذا كان الزوج الذى قبل الزواج مكرها يسعى إلى إشباع غريزته خارج نطاق الأسرة فيتخذ لنفسه الخليلات ، أو يذهب إلى أماكن الخلاعة والفجور مما نشأ عنه كثرة الأطفال غير الشرعيين .

ومما يساعد على توطيد العلاقة الجنسية فى الأسرة الحديثة ذيوع وسائل ضبط النسل ، فيستطيع الزوجان أن يتحكما فى عدد أطفالهما بحيث لا تصبح هموم الأسرة وتربية الأطفال عبئا يثقل كاهلهما ويجعل حياتهما آلية خلوا من المتعة ، ويسير بهما حثيثا نحو الشيخوخة بعد أن تفقد المرأة جمالها ويفقد الرجل نشاطه وحيويته .

والوظيفة الثالثة للأسرة وهى العمل على جمع شمل أفرادها فى مسكن واحد يشعر فيه الزوج بعطف زوجته وعنايتها ويشعر فيه الأبناء برعاية الوالدين ، فهى فى نفس الوقت من أهم البواعث على

تكوين الأسرة فى كل العصور . فالملاحظ أن الشاب إذا ما بلغ طور الرجولة وأصبح فى مقدوره أن يكسب رزقه بنفسه يتوق إلى أن يكون له منزل خاص تتوفر فيه عناصر الحرية الشخصية والاستقلال ، كما أن الفتاة قبل زواجها تحلم بتلك المملكة الصغيرة التى سوف تتوج عليها وتتصرف فى شئونها بملء إرادتها .

والاسرة القديمة لم يكن يتوفر فيها هذا الشعور بالحرية . فمن الناحية الاولى كان الرجل وزوجته وأولاده وزوجاتهم يعيشون جميعا فى صعيد واحد يسيطر على أموره الاب فقط وتتلاشى فيه حرية الابناء وزوجاتهم . ومن ناحية ثانية كانت المرأة فى نطاق هذا المنزل مكلفة بأداء كثير من الاعمال المرهقة التى تسلبها راحة الفراغ ، وتشعرها بأنها آلة صماء ليس لها أن تتمتع بلذائذ الحياة .

وعلى هذا لم يكن أفراد الاسرة ينظرون إلى المنزل مثل نظرتهم الحالية . أما الآن فقد جرت العادة على أن الابن إذا تزوج فانما ينفصل عن أسرة أبيه ويكون له أسرة فردية مستقلة ، وبذا ينال قسطه من الحرية فى ظل حب وإخلاص زوجته التى تشعر بدورها أنها سيدة الدار لا خادمة لغيرها . فتتفرغ بكليتها لاداء واجباتها وإسعاد زوجها وأبنائها .

ومن الناحية الثانية امتدت يد المدنية الحديثة إلى داخل المنزل فحملت عن الزوجة شتى الأعباء المرهقة التى كانت تنوء تحتها ، وأصبح

فى مقدور أعضاء الأسرة أن يتمتعوا بوقت الفراغ ، ولا شك أن كلا منا يشعر بأثر المخترعات الحديثة فى تخفيف وطأة تلك الأعمال الثقيلة المملة ، التى كان أداؤها فيما مضى مضيعة للوقت والجهد . وبتخلص الأسرة على هذا النحو من مختلف المنغصات القديمة ضاقت دائرة اختصاصها وتركزت فى أداء الواجبات التى تتلاءم وطبيعتها وتنسجم مع أغراضها السامية .

* * *

## الأسرة المصرية

إننا إذ نتكلم عن الأسرة المصرية إنما ترتسم فى مخيلتنا صورتان مختلفتان ، الأولى للأسرة المصرية الريفية والأخرى للأسرة العصرية التى تقطن المدن .

### الأسرة الريفية

أما سكان الريف وهم الأكثرية العظمى من المصريين فإنما يعيشون الآن كما كانوا يعيشون فى العصور القديمة والمتوسطة ، لم يلبسوا رداء المدنية الغربية بعد ولم يصيبوا شيئا من حسناتها أو سيئاتها . ويشتغلون بالزراعة ، مستعملين فى مهنتهم تلك الأساليب العتيقة التى كان يستعملها آباؤهم من قبل . وقد ارتبطوا بالأرض يأكلون من خيرها ويرثها الابن عن الأب ، فينقرض جيل من الناس بعد الآخر والأرض

باقية تحمل الأحياء وتطوى فى بطنها حطام الموتى . وعلى هذا النحو أصبح الفلاح والارض جزئين يكمل أحدهما الآخر .

والاسرات الريفية تحمل طابع القدم فى تكوينها ومظهرها وما تؤديه من وظائف . فهناك المنزل القديم يعيش فيه الأب والام وأبناؤه وزوجاتهم ، يستوى فى ذلك الغنى والفقير . والاسرة فى مجموعها وحدة اقتصادية شبه مستقلة يتولى شئونها الاب وله فيها الكلمة النافذة . والمرأة فيها تكلف بشتى الاعمال المنزلية المرهقة ، إلى جانب مساعدتها لزوجها فى الحقل وليس لها مثل مكانة الرجل ، فهى لم تتحرر بعد من قيود القرون الوسطى — تتزوج متى يريد الاب ولمن يريد — وهى بعد هذا الزواج تتحمل عنت الزوج وتتعرض لاهوائه المتضاربة . فقد يطلقها إذا رأى ذلك فى صالحه وقد يتزوج ثانية وثالثة دون كبير مبالاة بالنتائج .

والابناء يقضون حياتهم فى كنف الاسرة يعتدون بها ويفخرون بانتمائهم إليها ويعملون على ثرائها . معلوماتهم تجاريب الماضى وأفق تفكيرهم لا يتعدى دائرة القرية . فيها يولدون وفى ثراها يدفنون .

مثل هذه الاسرة يؤدى فيها الافراد كل الوظائف فهم يزرعون الارض ويبنون المنزل ويغزلون صوف الغنم ووبر الماعز ليتخذوا منها مادة ملبسهم فى بعض الاوقات . أو بعبارة أخرى يعيشون جميعا داخل نطاق الاسرة فى شبه عزلة عن العالم الخارجى ، وهم فى هذا

الوضع محافظون على القديم يكرهون التغيير ويعيشون فى الماضى .

والزواج فى نظر الرجل منهم واجب عليه أن يؤديه فى سن مبكرة سواء كانت الظروف الاقتصادية مواتية أو غير مواتية ، وعليه أن ينجب من الابناء أكبر عدد ممكن ، دون نظر إلى ماقد يصيب الام من ضرر من جراء ذلك .

فلا عجب والحالة هذه إذا رأينا نسبة وفيات الأطفال عندنا مرتفعة جدا إذا قورنت بالنسبة فى بعض البلاد الأوروبية . ونحن نقتبس من كتاب « على هامش السياسة » للدكتور حافظ عفيفى باشا مايوضح هذه الحقيقة . قال :

« إن نسبة الوفيات عندنا وهى المقياس المعتمد للدلالة على حالة الصحة العامة تصل إلى ٢٥ فى الألف من عدد السكان . وهى فى الأطفال الذين تقل سنهم عن السنتين تصل إلى ١٦١ فى الألف . ولأجل معرفة الحالة الصحية التى تترجم عنها هذه الأرقام يجب علينا أن نوازنها بما يماثلها فى البلاد الأخرى فهى فى انجلترا ١١,٧ فى الألف من عدد السكان ولا تزيد فى الأطفال عن ٥٧ فى الألف . وهى لاتزيد فى البلاد الأوروبية أو الامريكية كثيرا عنها فى انجلترا . وإن ارتفاع هذه النسبة فى مصر إلى ضعف النسبة فى انجلترا وأوروبا هو فى ذاته إنذار خطير لنا وإعلان سيىء عن حالتنا الصحية . وأخطر من هذا أن هذه النسبة كانت فى مصر فى سنة ١٩٠١ — ٢٣ فى الألف ، وعلى هذا فقد

زادت هذه النسبة بعد مجهودات أربعين سنة ظن الكثيرون معها أن الصحة العامة تحسنت تحسنا بينا ... »

أما معنى هذه الحقائق من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية فهو أن الاسرة المصرية والريفية بنوع خاص تبذل الجهد والعناء فى سبيل إيجاد الذرية فيضيع هذا الجهد أدراج الرياح . وهذا فى واقع الأمر عبث بالحياة الانسانية لايفوقه عبث .

والاسرة الريفية فقيرة إلى أبعد حدود الفقر . وقد جاء فى إحصاء الملكية الزراعية لسنة ١٩٣٥ أن أصحاب الاطيان من سكان مصر يبلغ عددهم ٢,٥٠٠,٠٠٠ يملكون فى مجموعهم ٥,٥٠٠,٠٠٠ من الأفدنة .

من هؤلاء الملاك ١,٦٧٧,٥٣٦ يملكون أقل من فدان ومتوسط ما يملكه كل منهم هو ٤١ ٪ من الفدان ، ٥٦٤,٧٠٠ متوسط ما يملكه الواحد منهم ٢,٠٢ فدان ، ٨٤,٦١٧ يملك الفرد منهم فى المتوسط ٦,٦٣ فدان ويبلغ مجموع هؤلاء ٢,٣٢٦,٨٥٣ شخصا يملكون ١,٢٠٠,٠٠٠ فدان تقريبا . ويبقى من الأراضى الزراعية بعد هذا ٣,٣٠٠,٠٠٠ فدان فى حوزة ٢٠٠,٠٠٠ شخص . وعلى هذا نقول إن ٩٣ ٪ من مجموع ملاك الأراضى الزراعية لا يملكون غير ٢٠ ٪ من الارض بينما يملك ٧ ٪ من الملاك ٨٠ ٪ من الارض . فإذا أضفنا إلى هذا أن هناك ملايين من المصريين لا يملكون شيئا بل يعملون

فى الزراعة بأجر ضئيل أو لا يتكسبون مطلقا ثم ترجمنا هذه الأرقام إلى حقائق اجتماعية تبين لنا أن الاسرة الريفية المصرية لا تعيش فى القرن العشرين بل تعيش فى مثل ذلك العصر الاقطاعى الذى كان يسود أوروبا فى القرون الوسطى .

ولست أعدو الحقيقة إذا قلت إن الاسرة الريفية لا تزال الآن حيث كانت منذ خمسة آلاف سنة لم يعتورها من التقدم إلا قدر طفيف . فها هو تاريخ قدماء المصريين ينبئنا والنقوش على جدران المعابد والهياكل ترينا أن الفلاح المصرى القديم كان يبنى منزله من الطين ويلبس جلبابا من الكتان ويشرب من ماء النيل رأسا ويروى أرضه بالشادوف والساقية ويستعمل المحراث فى حرث الارض ويأكل الشعير والبصل . وهذا ما يعمله الفلاح المصرى فى القرن العشرين بعد أن تبدلت ظروف العالم واختلفت أوضاع الحياة فى أكثر الامم .

هذه حالة شاذة لا بد لها من أسباب لا تقل عنها شذوذاً لأن المصريين كغيرهم يخضعون لسنن التدرج والتقدم ، ويتأثرون بشتى المؤثرات التى يتأثر بها غيرهم . فوقوفهم طوال هذه الآلاف من السنين حيث كانوا قديماً من الامور التى قلما تحدث فى تاريخ الأمم . ومن يقرأ تاريخ انجلترا الاقتصادى فى القرن الثالث عشر يكاد يحسن أنه يقرأ تاريخ مصر المعاصر . ولكن أين نحن من انجلترا اليوم فى حين أن مصر تمتعت بمدنية عظيمة فى وقت كانت فيه انجلترا وأوروبا تتخبط فى دياجير الجهل والتأخر !!

لا يرجع اللوم فى ذلك على المصرى نفسه فهو معروف بالذكاء والجلد ، ولا إلى طبيعة البلاد نفسها فمصر بلاد غنية تحمل فى تربتها أسباب النهوض والترقى . ولا إلى المناخ فهو وإن كان يدعو إلى الكسل فى فصل الصيف إلا أنه معتدل بوجه عام لا يوجب الخمول والتدهور، ولا إلى مركز مصر الجغرافى فانه كان ولا يزال أكثر مراكز العالم احتكاكا بالمدنيات القديمة والحديثة . فمن العجب العجاب والحالة هذه أن نرى بلاداً أصغر من بلادنا مساحة وأقل سكانا وأفقر موارد كهولندا أو الدانمرك قد سبقتنا فى مضمار التقدم ، بينما تخلف بنا الركب وقعدت بنا الهمم مع أن نور العرفان قد انبثق من ديارنا والمدنية الأولى ظهرت على مسرح الحياة فى وادينا ! !

السبب فى هذا الركود الذى شمل الحياة المصرية خارجى ليست له علاقة (مباشرة) بمصر نفسها . والواقع أن التاريخ المصرى يبين لنا أن ثلاثة آلاف السنة الماضية قد شاهدت مصر تناضل أقواما فتنوا بجمالها وأغرموا بثرائها وثراها فأقبلوا من كل حدب وصوب يطلبون فيها مقاما. ويلتمسون فيها مرتزقا . فقام بينها وبينهم كفاح مرير استنفد قوتها وجهدها ، وصرفها عن الاهتمام بتحسين أحوالها الداخلية ، فركدت فيها النواحى الاقتصادية والاجتماعية . وظلت الى الآن كما كانت من قبل لم تصب من التقدم إلا قدرا صغيرا .

وقولنا إن السبب فى بطء التقدم الاجتماعى يرجع إلى عامل خارجى

ليست له علاقة (مباشرة) بمصر نفسها احتياط لهما يبرره، لأن جغرافية مصر لها دخل كبير فى هذا الضعف الموروث

كلنا نعلم أن مصر سبقت غيرها فى المدنية ـ وأهم أسباب ذلك أن خصوبة التربة المصرية ونهرها الفياض قد مكنا سكان الوادى فى عصر مبكر جدا من الاشتغال بالزراعة، تلك المهنة التى ساعدت على استقرارهم واندماجهم وخروجهم قبل غـــيرهم من حالة الهمجية التى تصاحب اشتغال الانسان بالصيد وهى مهنة الانسان الأول ـ غير أن هناك عاملا آخر ساعد على حفظ هذه المدنية فى دور طفولتها حتى شبت وصلب عودها ـ هذا العامل هو عزلة وادى النيل عزلة طبيعية . فالودى تحف به الصحراوات القاحلة من الجانبين ويحميه البحر من الشمال والجنادل النهرية الوعرة من الجنوب ـ كل هذه العوائق كانت فى العصور القديمة تحول دون الغزوات الأجنبية . ولذا نشأت المدنية فى مصر بعيدة عن تدخل غرباء القوم ، وبقيت خلال آلاف السنين من تاريخها القديم مستقلة موفورة الكرامة . فنضجت إبانها مدنيتها واستقرت ـ غير أن هذا العامل نفسه كان سببا فى ضعف المصريين، لأن اعتمادهم فى رد هجمات الأعداء على الحواجز الطبيعية التى كانت تحمى بلادهم أورثهم الاستكانة وحرمهم تهيئة أنفسهم للكفاح ومقاومة المعتدين . فلما تقدم العالم المجاور لهم وظهر على مسرح الحياة أقوام آخرون أصلب عودا وأشد مراسا وأعظم أطماعا ، وإن كانوا أقل

مدنية ، لم يجد المصريون فى أنفسهم القدرة على الوقوف فى وجوههم والدفاع عن وطنهم . ولذا دانت مصر تباعا للهكسوس والنوبيين والفرس والاغريق والرومان والعرب والأتراك وغيرهم . فأصبحت كالمريض لايكاد يفيق من مرض حتى يتتابه مرض آخر يسلبه حيويته وقدرته المدخرة .

هذا فى نظرنا هو التعليل الصحيح لبطء تقدم مصر الاجتماعى ولذا كان إصلاح الأسرة المصرية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية عمل شاق مرهق يتطلب من أولى الأمر إنكارا لذاتهم وعزما ثابتا وإخلاصا قويا ـ فالعلة بادية للعيان والعلاج ظاهر معروف وإن كان مرا عسيرا . وليس من أغراض هذا الكتاب أن يعرض لوجوه الاصلاح ، فلنترك ذلك إلى قادة الأمة وأولى الأمر فيها .

***

### الاسرة العصرية المصرية

أما الأسرات المصرية العصرية وهى تلك التى تسكن أمهات المدن فأكثرها من الطبقة المتوسطة ، وتشمل أقلية من طبقة كبار الملاك الأثرياء . مثل هذه الأسرة تختلف عن سابقتها الريفية فى أن المدنية الأوروبية قد امتدت إليها حديثا وأثرت فيها تأثيرا محسوسا . فأصبحت لهذا وسطا بين الأسرة المصرية القديمة والأسرة الأوروبية الحديثة ، لها

تقاليد وعادات وأنظمة شرقية قد طعمت بأخرى غربية. ونستطيع أن نقول بعبارة أخرى إن الأسرة العصرية المصرية هى فى طور الانتقال بين نوعين مختلفين من المجتمع يكاد الجديد منهما يطغى على القديم.

فالأسرة المصرية الحديثة ليست شديدة التماسك كما كانت فى الماضى، لأن أفرادها لا يعيشون جميعا فى صعيد واحد، فترى الأب مثلا يعيش فى الريف بينما يعيش أولاده فى شتى المدن المصرية وقد احترفوا مهنا أخرى غير الزراعة، فمنهم الموظف والطبيب والتاجر - وعلى هذا ضعف سلطان الأب على أبنائه وتفككت روابط الأسرة إلى حد كبير. غير أن مافقدته الأسرة من هذه الناحية قد عوضته من ناحية أخرى بنضوج شخصية كل فرد من أفرادها. فالاستقلال فى المعيشة والاعتماد على النفس هما أهم مقومات الشخصية، ولا تتوافران إلا إذا ابتعد المرء عن أسرته وواجه الحياة منفردا، يتعثر ثم يقف ويخطىء ليتعلم من أخطائه، وهكذا تكتمل رجولته.

والمرأة فى نطاق الأسرة الحديثة قد قفزت إلى مركز اجتماعى أعلى بكثير من مركزها فى نطاق الأسرة الريفية. فنالت قسطا وافرا من التعليم العام ولم تحرم من الثقافة الجامعية بل نافست الشبان وفاقت الكثيرين منهم. ثم اندفعت إلى الحياه العامة وساهمت بنصيب كبير فى شتى نواحى النشاط الاجتماعى، وأدت واجبها نحو المجتمع المصرى بصورة تدعو إلى الفخر. وقد وجدت لها أنصارا

كثيرين من ذوى المكانة والحيثية يدافعون عنها ويعضدون حركتها ويقررون عدالة مطالبها على صفحات الجرائد وتحت قبة البرلمان وفى الأندية والمجالس العامة . وهكذا نالت المرأة المصرية العصرية مطلبا بعد مطلب وأصبح لها مقام ملحوظ فى المؤتمرات الدولية ـ وهذه حركة مباركة نتفاءل بها ونرجو لها نجاحا مضطردا بحيث تنتقل من حيزها الحالى الضيق إلى نطاق أوسع يشمل المرأة المصرية فى كل أنحاء البلاد .

ولكننا نقرر فى شىء من الألم أن الأسرة المصرية الحديثة قد طفرت إلى الأمام نحو المدنية الغربية . وخطورة هذه الطفرة تبدو فى أن كثيرين وكثيرات من شبان مصر وشاباتها يسيئون فى كثير من الأحيان استعمال ما تمتعوا به من حرية بعد أن تضاءل نفوذ رب الأسرة عليهم . ونسوا أن لكل حق يكتسبه الفرد فى حياته واجبا يقابله ويتحتم عليه أداؤه . ولو أن الفتاة المصرية نظرت إلى أختها الغربية نظرة فاحصة لتبينت أنها الى جانب تمتعها بما يتمتع به الرجل من حقوق فانها لا تهمل وظيفتها الكبرى وهى الإشراف على منزلها وتوفير الراحة لزوجها وأولادها . ونحن نخشى أن نصرح أن كثيرات من الفتيات المصريات ممن يتعلمن تعليما عاليا يبدو عليهن شىء من عدم الاهتمام بهذه الناحية ويعتقدن أن الاشتغال بشئون المنزل شىء مكروه يقمن به فى شىء من الملل والضجر . ونحن إذ نقول ذلك لا نلوم الفتاة كثيرا فهذا فى نظرنا مظهر من مظاهر الانتقال من عهد سلب

فيه النساء الحرية الاجتماعية إلى عهد جديد نلن فيه قسطا كبيراً منها . وفى رأينا أن مرور الزمن كفيل بوضع الأمور فى نصابها ، فيفهم المصريون التقدم الاجتماعى على حقيقته ويبنون صرح مدنيتهم على أسس قويمة قوية.

على أننا فى الواقع نشعر بحاجة ملحة إلى مثل عليا غير المثل التى يصبو إليها الآن شباننا وفتياتنا . فى حاجة إلى مثل عليا جديدة يرسمها للجيل الجديد قادة الفكر والمهيمنون على شئون التربية والتعليم. ويجب أن يفهم المعلمون والمتعلمون أن التدرج — لا الطفرة — هو أسلم طريق للتقدم والترقى، وعلينا ألا نضرب بكل تقاليدنا عرض الحائط بل يجدر أن نجعل من هذه التقاليد أسسا نرتكز عليها ثم نحورها تحويراً يلائم مقتضيات العصر الحديث .

***

## قوة رابطة الأسرة وأثرها فى حياتنا الاجتماعية

اشتغل المصريون بالزراعة منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد تقريبا ، وقد كانت خصوبة التربة المصرية وتجدد خصبها كل عام بما يجلبه النيل من طمى إلى جانب سهولة الرى من أهم العوامل التى وطدت مهنة الزراعة فى مصر . ولا شك أن اشتغال المصريين بالزراعة طوال هذه المدة قد طبعهم بطابع خاص يميزهم عن غيرهم من الصيادين أو الصناع وترك أثرا عميقا فى أخلاقهم وعاداتهم .

ولعل أهم ظاهرة اجتماعية فى حياة المصريين لاتزال هى قوة الرابطة بين أفراد الأسرة الواحدة وشدة العطف المتبادل بينهم . وذلك راجع إلى أثر البيئة الزراعية . ففى الغابات الاستوائية والأصقاع القطبية حيث لا وطن للانسان ، وحيث يحتم عليه الحصول على الرزق التنقل من بقعة إلى أخرى وراء الحيوان يصيده أو الثمار يجمعها ، ترى التفكك باديا بين أفراد الأسرة ولا يجد العطف سبيله إلى قلوب أفرادها ،فالاسكيمو الذين يشتغلون بالصيد فى شمال كندا كثيراً ما يتركون الكهول والعجزة منهم للموت إذا ما أضطروا إلى الرحيل إلى جهة نائية .

وإذا اشتغل الانسان بالرعى فى جهة خاصة ، وقل تنقله نسبيا استقرت الحياة العائلية واشتد الاتصال بين أفراد الأسرة وقويت الرابطة بينهم وأمكنهم تكوين القبائل الكثيرة العدد التى تخضع لرئيس من شيوخهم .

أما الزراعة فهى الحرفة التى تربط الانسان بالارض وتضطره الى العناية بها وتحسينها حتى يكفل لنفسه وأسرته رغد العيش . وبذلك تعيش الأسرة طول حياتها فى بقعة واحدة . فيتآلف أفرادها ويقوى عطفهم على بعضهم البعض إلى درجة يكرهون معها الانفصال عن الأسرة .

ونحن نجمل أهم آثار هذه الظاهرة فى حياة المصريين فيما يلى :—

أولا — عدم رغبة الوالدين فى انفصال أبنائهم عنهم بعد زواجهم ،

ولا تزال تتمثل هذه الظاهرة بوضوح فى الأسر الكبيرة فى قرى مصر، حيث تجد الرجل وزوجته وأبناءه وزوجاتهم فى صعيد واحد يشرف عليه الاب وله فيه الكلمة النافذة ، وهذا هو النظام الأبوى بأجلى معانيه Patriarchal System ولا مثيل له إلا فى بيئة الرعى . ولا يخفى أن هذا النظام على الرغم من تقويته للأسرة بوجه عام فإنه يضعف شخصية أفرادها، تلك الشخصية التى لا يمكن أن تقوى إلا بالاستقلال فى المعيشة والاعتماد على النفس . هذا فضلا عما يسببه هذا النظام فى كثير من الأوقات من التنازع والتشاحن . ولقد بدأت هذه الظاهرة تقل شيوعا لأن ضرورات الحياة فى العصر الحاضر ، وانتشار التعليم وما يتبعه من تغيير الأفراد لحرفة الزراعة والاشتغال بغيرها تستلزم الابتعاد عن الأسرة .

ثانيا — الرغبة عن الهجرة الى بلد بعيد ، وأكثر ما تتمثل هذه الظاهرة فى موظفى الحكومة ، إذ تراهم إذا نقلوا إلى بلد بعيد عن أسرتهم يضجون ويشكون ويسعون جهدهم إلى الرجوع إلى موطن الأسرة ولو كلفهم الأمر غاليا ، وكثيراً ما تأبى الزوجة اصطحاب زوجها الى ذلك البلد لأنها لا تود الابتعاد عن أهلها وعشيرتها ، متناسية ما تحتمه الزوجية من مقاسمة الزوجة زوجها السراء والضراء . وقد كان لهذه الظاهرة السيئة أثرها فى عدم إمكان استغلال المصريين للواحات المصرية أو بلاد السودان تلك البلاد الواسعة التى يجدر أن

يكون لهم فيها مجال حيوى ونشاط استغلالى . والمصريون فى ذلك يخالفون الشعوب السكسونية بوجه عام ، والانجليز بوجه خاص ، أولئك القوم الذين لايترددون فى النزوح إلى أقصى بقاع المعمورة حيث ينشئون أوطانا جديدة يصبغونها بصبغتهم الخاصة ويستغلون مرافقها ويستقرون فيها ، وبذلك يؤدون لبلادهم أجل الخدمات . وليس أبلغ من تاريخ الانجليز فى الهند شاهدا على صحة ذلك ، إذ بدأ نفوذ الانجليز فى تلك البلاد على يد شركة تجارية محضة هى شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ ، وقد امتلكت بومباى سنة ١٦٦٩ فى عهد شارل الثانى ، ولم تأت سنة ١٨٥٨ حتى كانت الهند من أملاك التاج البريطانى ، ولا يزال اسم لورد كليف من الاسماء الانجليزية الخالدة التى وضعت أسس الامبراطورية فى الهند .

ثالثا — التواكل وعدم الاعتماد على النفس ، وذلك نتيجة اندماج شخصية الأفراد فى شخصية الأسرة وضعف نفوذهم بالنسبة إلى كبيرهم ، وتتجلى هذه الظاهرة فى أن كثيرين من الشبان يتزوجون قبل أن يتمكنوا من كسب عيشهم ، ويعيشون فى منازل آبائهم مدة طويلة دون أن يستشعروا الخجل ، بل تراهم على العكس يعتبرون ذلك فخرا وميزة تميزهم عن غيرهم من الفقراء الذين لا ينالون نصيبا من مساعدة ذويهم . وهذه الظاهرة السيئة تخالف الحالة فى بلاد الانجليز ، حيث يستقل الفرد بنفسه اذا حصل على قوت يومه . وقد أدى هذا

التخاذل وعدم الاعتماد على النفس إلى قلة الانتاج الشخصى ، لأن الشخص الذى لا يثق بنفسه ويعتمد على أهله وذويه قلما يكون لنفسه مركزا ممتازا أو ينتج إنتاجا حسنا . وهاهم شبان مصر المتعلمون لا مطمع لهم ولا أمل تصبو اليه نفوسهم إلا وظيفة حكومية يلتصقون بمقعدها ، ويخلدون إلى الراحة فى كنفها بعيدين عن معترك الحياة . أما الكفاح والجهاد ولذة الانتصار على الصعاب فليس لها كبير وزن لديهم . ولعل هذا الاستقرار المنشود هو صورة أخرى للاستقرار الذى يشعر به ساكن البيئة الزراعية بين أفراد أسرته . ولقد كان من نتائج هذا القصور أن ميدان العمل الحر قد ترك فى مصر للأجانب يجولون فيه ويصولون ، ثم يجنون ثماره الناضجة فأصبحوا ذوى ثروات ضخمة وأملاك واسعة بينما يقنع شبابنا بتلك الوظائف الحكومية التى لا تروى ظمأ من طمحت نفسه للغنى . تلك الوظائف الصغيرة التى يعيش الانسان فى كنفها فقيراً ويموت فقيراً .

# الباب الثانى

## مشاكل الأسرة

## المشاكل الاجتماعية فى الاسرة

قدمنا لك أن الاسرة تقوم بثلاث وظائف هامة هى إيجاد الذرية للمحافظة على بقاء الجنس البشرى ، ثم إشباع الغريزة الجنسية فى الرجل والمرأة بصورة شرعية ، ثم تكوين المنزل الذى يلتئم فيه شمل أفراد الأسرة ويجدون فيه الراحة والطمأنينة . وقلنا إن الأسرة هى النظام الاجتماعى الوحيد الذى يستطيع أن يجمع بين هذه الوظائف الثلاث ويؤديها فى توافق وانسجام . كما أن سعادة الاسرة تتوقف على مبلغ تحقيقها لهذه الاغراض مجتمعة .

وفى الواقع أن المجتمع الناهض هو ذلك الذى يمكن الاسرة من بلوغ هذه الاهداف دون أن يكون فى تحقيق الواحد منها انتقاص للآخر

ونحن نعرض الآن للمشاكل التى تقوم فى حياة الأسرة وتقعدها عن القيام بوظائفها الرئيسية فتسلبها السعادة والهدوء .

# ① المشكلة الأولى

## سعادة الأسرة

يبدو لنا أن القليل من الأسر يتمتع أفرادها بقسط وافر من السعادة . أو بعبارة أخرى يندر أن تسأل رجلا متزوجا عن مبلغ شعوره بالسعادة إلا ويجيبك بأن متاعب الزواج تفوق لذائذه ، وأن العزوبة على ما فيها من عيوب تفضل الزواج وما يجلبه من مسرات . والحق إن فى هذا القول نصيبا كبيرا من الصحة وإن كان المتزوجون يغالون فى التصوير .

ولذا نرى لزاما علينا أن نناقش هذا الموضوع فى شىء من الجرأة والصراحة وإن كان هذا يسىء إلى الكثيرين من الناس .

ففى البدء يجب أن نقرر أن أكثر الناس عند إقبالهم على الزواج لا تكون لديهم فكرة واضحة عن ماهيته وأغراضه ، بل يتقدمون إليه فى شىء من الاستخفاف ، إما بدافع شخصى مؤقت ، أو لتحقيق غرض واحد من أغراض الحياة . فالرجل قد يندفع إلى الزواج من فتاة ملكت لبه بمحاسنها الجثمانية فنظر إلى جمالها فقط دون اعتبار أى شىء آخر . وقد يكون الباعث له على الزواج الرغبة فى الحصول على غنم مادى فقط ـ والفتاة بدورها قد تقبل الزواج من رجل استولى على شعورها بحلو حديثه أو وجاهة مظهره .

وقد يكون رائدها فى الزواج مجرد الحصول عل من ينفق عليها فى سعة — كل هؤلاء يخطئون التقدير ويسعون إلى الشقاء بخطوات حثيثة .

يجب أن يفهم كل راغب فى الزواج أن الأنانية هى أول أسباب الشقاء ، وأن السعادة الزوجية لا يمكن الحصول عليها إلا إذا كان الفرد على استعداد للتضحية بالكثير فى سبيل شريك حياته — فإذا كانت التضحية متبادلة بين الطرفين - وهذا مايجب أن يكون - تعادلت كفتا الميزان ، فما يخسره شريك من ناحية يكسبه من ناحية أخرى .

ومن الضرورى أن يعلم الشاب والفتاة أن الزواج وتكوين الأسرة شىء جليل خطير ، ليس من المحتم أن يكون حلو المذاق دائما بل ينطوى على كثير من المنغصات . وأن عليهما أن يتغلبا على مشاكل الحياة بالحب والأناة والعزيمة الصادقة . تحدوهما الرغبة فى تحقيق تلك الأغراض النبيلة التى اجتمعا من أجلها . وليعتقد كل منهما أن النقص من صفات الانسان ، أما الكمال فمن صفات الله تعالى . وعلى ذلك فيجب أن يغتفر كل للآخر تلك الأخطاء التافهة التى لا ينجو من ارتكابها أحد . فإذا ما فهم الشاب والفتاة حقيقة الزواج وأغراضه ، وقدرا بحق عظم المهمة الملقاة على عاتقهما وفرا على نفسيهما الكثير من المتاعب التى يكون مبعثها وجود صورة مشوهة للحياة الزوجية فى مخيلة الواحد منهما أو هما معا .

* * *

# قبل الزواج

وعلينا أن نؤكد فى صراحة تامة أن الجاذبية الجنسية هى أول مايجب أن يتطلبه الشاب فى شريكة حياته . إذ هى الأساس الذى ترتكز عليه الأسرة كما ذكرت فى أول صفحة من هذا الكتاب، فإذا كان الأساس واهيا تداعى كامل البناء . ويجب ألا يفهم أحد من هذا أن الجاذبية الجنسية وحدها تكفى لتوفير السعادة الزوجية ، بل الذى نقصده أن الرجل الذى لايجد فى الفتاة التى ينشد زواجها جمالا جثمانيا يجذبه نحوها يجب أن يثق أنها لا تصلح له زوجة مهما تحلت به من صفات أخرى .

وهنا يجول فى الخاطر سؤال آخر .. ما هو أصلح سن يصح أن يتزوج فيه الرجل والفتاة ؟ وأيهما يجب أن يكون أكبر من الآخر ؟.

والإجابة على هذا السؤال واضحة . فالفتاة أسبق من الرجل فى البلوغ ، ولا يكتمل نموها الجنسى إلا بين العشرين والخامسة والعشرين ، فاذا عرفنا أن المرأة تنتهى خصوبتها الجنسية بين الخامسة والأربعين والخمسين بينما يظل الرجل قادرا على النسل بعد ذلك بكثير ، وأن المرأة تفقد جمالها فى أكثر الأحيان قبل الرجل ، أمكننا أن نقرر أن الزوج يجب أن يكبر زوجته بما يقرب من خمس سنوات ـ فإذا تزوجت الفتاة فى الخامسة والعشرين وجب أن يكون زوجها حول الثلاثين

من العمر ـ وخصوصا أن الرجل قلما تمكنه ظروفه المالية والاجتماعية من الزواج قبل هذا السن فى مجتمع كالذى نعيش فيه .

أما أن يكبر الرجل زوجته بعشرين عاما أو تتزوج المرأة شابا تصلح أن تكون له أما ، فهذا أمر خطير يسبب الكثير من مآسى الحياة . لأن التفاوت فى العمر قلما يصحبه تقارب فى العقلية أو تعادل فى تجارب الحياة أو اتفاق فى وجهات النظر . وهذا يثير بين الزوجين احتكاكا دائما ينتهى بزواجهما إلى الفشل والافتراق إذا كان هذا ممكنا .

والأخطر من هذا أن تقدم أحد الزوجين فى العمر مع وجود الآخر فى ربيع الحياة من الأمور التى توجد تنافرا جنسيا شديد الوطأة . ولما كانت الطبيعة البشرية تنطوى على الضعف من هذه الناحية ، فليس بمستغرب أن نرى زوجة شابة فى أوج الصحة والنضارة قد ولت عن زوجها الشيخ المتهدم إلى فتى تتدفق منه حرارة الشباب ، وإن كان دون زوجها مالا أو مركزا ـ وليس بعجيب كذلك أن نرى رجلا لم يتخط الثلاثين أو الأربعين قد هجر زوجته الذابلة إلى زهرة يانعة فى حديقة الحياة قد افتتن بجمالها . وفى كلتا الحالين تصطدم الأسرة بصخرة عاتية فتتحطم أو يتصدع بناؤها .

ويجدر أن نشير مرة أخرى إلى أن الحب الذى يرتكز على الجاذبية الجنسية وحدها وإن كان يكفى لاجتذاب حبيب نحو حبيبته ، إلا أنه لا يكفل سعادة زوجين يعيشان معا سنوات طوالا ، يتعرضان خلالها

لشتى أنواع التجارب المادية والمعنوية وتمتحن فيها صفاتهما امتحانا قاسيا . وكثيرا ما نرى رجلا وزوجته قد سارا معا أول الشوط على أتم ما يكون سعادة ووفاقا، غير أنهما تنافرا وتباعدا بعدذلك دون أن يقطعا من المرحلة إلا جزءا يسيرا ـ مثل هذه الخاتمة المحزنة ترجع إلى وجود هوة عميقة بين المزاجين والعقليتين لم يستطع الحب الجنسى أن يملأها. يقول كثيرون من الناس إن الحب يستر العيوب . وهذا قول معقول إذا فهمناه حق الفهم . والمعنى هنا أن الحب يعمى بصيرة المحبين عن تكشف وجوه النقص فى بعضهم البعض ـ فاذا ماجاء الزواج وخفت حدة الثورة الجنسية ، انكشف الستر وبدت لهم العيوب الواحد تلو الآخر، وبدأ التنافر واكفهر وجه الحياة . فكم من فتاة لها جمال الملائكة وطباع الشياطين ، وكم من رجل له مظهر الرجل ولكنه خلو من كل مميزات الرجولة . وكم من مخلوق يجد الإنسان لذة مطلقة فى مجالسته يوما أو بعض اليوم ، ولكنه يفضل الجحيم على معاشرته فى حياة زوجية طويلة الأمد .

على ذلك يتحتم على من اعتزم الزواج أن ينظر فى فتاة أحلامه ، إلى تلك الصفات الخلقية التى تبدو آثارها فى كل يوم من أيام الحياة الزوجية، تلك الخلال التى تبقى بل ترقى على مر السنين وكر العشى ، بعد أن يذبل الجمال الجثمانى « ويشتعل الرأس شيبا » . أو بعبارة أخرى على المرء أن يبحث عن تلك المزايا الخلقية التى تبعث على الاحترام والمودة

إلى جانب الجمال الذى يثير فى النفس عاطفة الحب الجنسى .

ولتسأل الفتاة نفسها مثل هذه الأسئلة . . هل يتمتع ذلك الفتى الذى تقدم لخطبتى بالنشاط وحب العمل ؟ هل يقدم على عمله بالبشاشة والاخلاص اللازمين للنجاح ؟ هل يتكلم عن مهنته بلهجة اليائس الكاره أم يفخر بها ويعتزم صعود سلم الترقى بالعمل المنتج ؟ فإذا كان ذلك الفتى غير مخلص لعمله فانه سيكون زوجا تافها لا يتحمل أعباء الحياة .. فالى الجحيم ولن يكون مثل هذا الرجل زوجى .

ولتوجه إلى نفسها سؤالا من نوع آخر . . ما هو أسلوب ذلك الفتى مع الفتيات ؟ هل يعاملهن فى رزانة واحترام أم أن حديثه معهن ينطوى على الخفة والزق مما يجعله عرضة للسقوط فى الهاوية بعد الزواج ؟ إذا كان الفتى من هذا النوع الأخير فليذهب عنى ولن أخادع نفسى بأن الزواج سوف يهذب من خلقه . . إلى الشيطان ....!

وليسأل الرجل نفسه أسئلة شبيهة بتلك التى قدمت . . هل تقدر فتاتى قيمة المال؟ إذا كان الجواب بالنفى فلترأف العناية الإلهية بزوجها...! هل لتلك الفتاة روح المرح ؟ إذا لم يكن كذلك فلتتأسى من الآن على ذلك الزوج الذى سيحاول عبثا أن يدخل البهجة إلا قلبها ....! هل هذه الزوجة على شىء من الذكاء والنضوج الفكرى أم أن عقليتها قاصرة على المستحدث من اللباس وأفلام السينما وما اشتراه زيد

لزوجته وما قدمه عمر لخطيبته ؟ إذا كانت من هذا النوع فليرحم الله ذريتها .....!

ولست أقصد من كل هذا أن على الرجل أن ينشد الفتاة الكاملة، أو أن على الفتاة ألا تقبل إلا من سما عن النقص ،فالانسان الكامل لم يخلق ولن يخلق ، بل الذى أرمى إلى بيانه هو أن هناك عيوبا خلقية فى المرء لا يمكن للصبر والأناة أن يتحملها إلى أمد طويل . مثل هذه العيوب تزلزل الثقة وتقتل الأمل وتقضى على الحب نفسه مهما كان قويا عميق الجذور .

وهناك خطأ شائع يقع فيه الكثيرون عند الزواج ولا يتنبهون إلى وجوده إلا بعدفوات الفرصة. ذلك هو صعوبة تغيير طبع المرء .....

رجل مرح خفيف الروح متوقد الذهن يتزوج فتاة راكدة بليدة لا تفهم معنى النكات والملح إلا إذا وضحت لها وفسرت . . .

رجل متدفق العاطفة يتزوج جبلا من الثلج . . فتاة نبيلة الشعور رقيقة الحواشى تتزوج رجلا فظ الطباع خشن الحديث قليل الاحساس . .

يدفع الواحد إلى زواج الآخر مظاهر خلابة من مال أو جاه ، وتحدو الواحد أو الآخر آمال واسعة تبنى قصورها فى الخيال - يقول الرجل فى نفسه « سوف أذيب ذلك الجبل الثلجى وأحوله إلى نار متقدة إذا سلطت عليه حرارة حبى » ، وتقول الفتاة فى قرارة نفسها « سوف أهذب خشونة ذلك الرجل فأجعله يسيل رقة إذا تدفق عليه عطفى

وحنانى ، . . كلاهما واهم سوف يعض بنان الندم حين لاينفع الندم . فالطبع جزء من تكوين المرء جذوره ضاربة فى النفس إلى الأعماق . فهو لايتغير بالسهولة التى يظنها الناس — وإذا كانت العادات البسيطة التى يتعودها الإنسان قلما يستطيع ان يقلع عنها إذا رسخت فى نفسه ، فهل من الهين أن يتغير طبعه وهو جزء من كيانه ولد به ونشأ عليه ! ؟

فليتدبر الأمر إذن كل من يقدم على الزواج واضعا نصب عينيه أن الطباع يندر أن تتغير بمرور الزمن ، وأن السعادة الزوجية لايمكن أن ترتكز على أمزجة متنافرة بل على انسجام وتوافق فى الأخلاق والعادات ووجهات النظر . وأن الأعراض الزائفة الزائلة لا تستطيع أن تخفف وطأة الجفاء بين عقليتين مختلفتين متباعدتين . أو طبعين متنافرين .

وهناك أمر آخر له خطورته عند الزواج ألا وهو التفاوت فى المركز الاجتماعى بين الرجل والمرأة . . فكثيراً ما يحدث أن فتاة من عائلة ثرية طيبة العنصر رفيعة القدر تقع فى حبائل رجل رقيق الحال لم يتلق من العلم إلا القليل — نشأ فى بيئة فقيرة ولم يتعود ارتياد الأوساط الراقية وليس له إلمام بآداب المجالس المهذبة . . قد يكون ذلك الرجل مثلا كاتبا يعمل فى إدارة أملاك أبيها أو سائقا لعربته . . أليس من الخطأ فى مثل هذه الحال أن تندفع الفتاة وراء عاطفة تأججت فى صدرها فتقامر بمستقبلها ومستقبل أولادها ؟ نحن لا نقول إنه من

المحتم أن مثل هذا الزواج سوف يتحطم، ولكننا نقرر أن زواجا يبنى على هذا التفاوت الاجتماعى قلما تنضج له ثمار شهية ، لأن فتاتنا هذه ستتكشف لها وجوه النقص فى زوجها بعد أن تخبو تلك الجذوة المتقدة التى أضاءت حياتها فترة قصيرة من الوقت . وتتمنى لو أنها عاشت فى كنف رجل يضارعها نبلا ومركزا . .

وعكس هذا الوضع صحيح كذلك . فكثيرا ما يتزوج رجل عالم عظيم القدر واسع الاطلاع فتاة كانت خادمة فى أسرته أو عاملة بأجر تافه فى مكان عام لا لشىء إلا لأن سحر عيونها قد قتله وصرع لبه ، فاذا ما أظلهما سقف واحد وجلس معا إلى مائدة واحدة يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر ورأى من آداب سلوكها وطريقة حديثها ما ينفره، علم أنه قد أساء الاختيار وتبين له أن مثل تلك المرأة لا تصلح اما لأولاده ولا تشرفه فى المجتمعات الراقية التى يؤمها .

ويجب ألا يفهم أحد من هذا أننا من أنصار تقسيم المجتمع إلى طبقات يحرم التزاوج بينها . فالذى نقصده هنا أنه ما دام المجتمع مقسما إلى طبقات فمن الأصلح أن ينتقى الرجل شريكة حياته من بيئة لا ترتفع ولا تنخفض كثيرا عن بيئته من الناحية الاجتماعية .

وعلينا الآن أن نكمل البحث فى ما يجب توفره فى الزوجين قبل الزواج بتحذير هام له أعظم المبررات ، ألا وهو وجوب خلو الفتى والفتاة من الأمراض التى تنتقل إلى الأبناء بالوراثة كالسل والأمراض

التناسلية — فقد وضحنا عند الكلام على الوظائف الرئيسية للأسرة أن أولى هذه الوظائف بقاء الجنس البشرى . ومن البديهى أن الذرية السليمة البنية هى التى تحفظ بقاء الجنس . أما الأطفال المرضى وذوو العاهات فهم سوس ينخر فى عظام المجتمع ويؤدى إلى تدهوره . على هذا يجب أن يلاحظ الرجل عند إقباله على الزواج أنه سليم من العلل قادر على إنجاب نسل قوى ، إذ من الجرم والاستهتار المطلق بالحياة أن يكون الإنسان سببا فى نقل العدوى إلى زوجه وبنيه . فذلك فضلا عن انطوائه على لون دنىء من الأنانية فإنه بمثابة طعن لقلب الأمة والانسانية — كذلك على من يقبل على الزواج أن يتأكد من خلو زوجته من الأمراض سالفة الذكر — ولكل هذا يجب أن يطالب الرأى العام أن تسن الدولة تشريعاً يحتم عدم التصريح بالزواج إلا إذا ثبتت صلاحية الرجل والمراة لذلك من الوجهة الطبية

ونحن نلمح فى بيئتنا المصرية مقدمات لهذه اليقظة الاجتماعية ونرجو لها نجاحا وذيوعا .

* * *

# بعد الزواج

## الغريزة الجنسية . . .

لانعدو الحقيقة إذا قلنا إن الزواج رحلة مع زميل مجهول إلى أرض مجهولة . . . وعند مايركب الزوجان القارب من شاطىء البحر العباب بحر الحياة ، ويطلقان الشراع للريح تبدأ رحلة مليئة بالمفاجآت والمغامرات . وكلما بعد الشاطىء وتوارى عن النظر جمهور المودعين انصرف كل إلى زميله يأنس اليه ويفتح قلبه له معضدا إياه بكل ماحوت النفس من مشاعر . كل يصبو أن تكون الرحلة موفقة والبحر هادئا والرياح رقيقة مواتية .

ومن عجب ، ونحن فى هذا العصر ، أن يقوم الأزواج والزوجات بمثل هذه الرحلات الخطيرة فى قوارب واهية البنيان مزركشة الأركان دون أن يلما بأبسط قواعد الملاحة ، ظنا منهم أن زرقة البحر وهدوء النسيم وجمال الشمس الساطعة هى كل ما فى الرحلة من ألوان . ترى هل علم هؤلاء أن البحر قد يرغى ويزبد ، وأن الهواء ربما انقلب ريحا صرصراً عاتية ، وأن الشمس قد تتوارى وراء السحب القاتمة وتتركهم فى ظلام دامس ! !

ومن عجب أيضا ونحن فى القرن العشرين أن يبدأ الرجل والمرأة هذه الرحلة وهما يجهلان الشيء الكثير عن حقائق أجسامهما

وتفاصيل العلاقة الجنسية . فضلا عن عدم درايتهما بسيكولوجية الزواج . ! !

فى الواقع أن الجهل بالأمور الجنسية واعتبارها من المسائل المخجلة التى يجب أن تحاط بالكتمان ويتحدث الناس عنها بالرموز والأصوات الخافتة ، من الأشياء المستغربة والمستهجنة فى نفس الوقت . فالرجل الذى يشترى سيارة أو جهازا لاسلكيا لايفتأ يقرأ من الكتب ما يمكنه من معرفة دقائق تركيب تلك أو ذاك — والشخص الذى ينصرف إلى تربية الدواجن لايضن بالمال فى شراء المجلات العلمية التى تبحث فى هذا العلم بقصد تمكين الهواة من العناية بالتفريخ والتربية . غير أن جمهرة المتزوجين لايعنيهم فى قليل أو كثير أن يلموا بحقائق العلاقة الجنسية وعلم وظائف الأعضاء ، ظنا منهم أن الطبيعة هى الرائد الأول والأخير . . هلا رأيت أسخف من هذا الاعتقاد وأشد خطرا ! ! ؟

وهناك مظهر آخر من مظاهر هذا الجهل والتقصير . إلا وهو إغفال القائمين على شئون التربية والتعليم لموضوع الزواج والجنس إغفالا معيبا . فإذا ما ذكر هذا الموضوع فإنما يمر عليه المربون مر الكرام ، يشيرون اليه فى حذر شديد ، ولا يسمحون أن يثير أحد ما يدعو إلى التعمق فيه .

فإذا ماترك الفتيان والفتيات إلى أنفسهم تبادلوا الآراء الفاسدة

وتشبعوا بنظريات خاطئة عن طبيعة الجنس . ولهم كل العذر فى هذا مادام الآباء والأمهات والمعلمون والمعلمات يجهلون أو يتجاهلون كل شىء عنه .

أليس من المضحك والمخزى أن نطلب من المتقدم إلى وظيفة كتابية صغيرة أن يؤدى امتحانا فى مبادىء الرياضة واللغات ، بينما لا نطالب من المتقدم لأعظم وظيفة فى المجتمع إلا دفع مبلغ من المال وكتابة تعهد بأنه قبل الزواج من فتاة معينة ، ثم يشهد على ذلك شاهد من أهله وشاهد من أهلها وكفى ؟ ؟ !

أليس من قلب الأوضاع أن نحتم على طالب صغير لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر أن يقرأ ثلاثمائة صحيفة فى التاريخ ومثلها فى الطبيعة ومثلها فى عدة علوم أخرى ، ثم نضطره إلى تأدية امتحان عسير مدة أربعة أيام . وبعد ذلك يمسك عليه المصححون الغلطة والهفوة ويحاسبونه بالدرجة وكسورها ، فإذا ما جاز الامتحان سلموه شهادة طويلة عريضة بذلك — بينما يتزوج رجل فى العقد الرابع من العمر وفتاة فى العقد الثالث دون أن يدرسا قليلا أو كثيرا عن ذلك العلم أو قل ذلك الفن الرائع المعقد — فن الزواج ! ! فيكون مثلهما فى ذلك مثل من يلقى بنفسه فى وسط نهر عميق ليتعلم السباحة . . !

لكل هذا نجد لزاما علينا أن نقدم إلى المتزوجين والمتزوجات بعض الدروس فى فن الزواج لعلها تبين لهم مواطن الزلل فيجتنبونها ، وبهذا

يكسبون لأنفسهم بعض السعادة ، ويسيرون بأسراتهم فى طريق مأمون، محققين بذلك تلك الأغراض السامية التى ينشدونها .

***

فى المقام الأول يجب أن يفهم الرجل والمرأة أن العلاقة الجنسية لها الاعتبار الأول فى الحياة الزوجية ، رغم أن هناك إلى جانبها علاقات كثيرة لها أهميتها . وذلك لأن العلاقة الجنسية هى من أهم البواعث التى تدفع الرجل والمرأة إلى تكوين الأسرة، كما أنها الوسيلة إلى الذرية، فلا يصح أن يقول أحد إن الروحانيات أولى بتقدير الزوجين من الجثمانيات ، بل الوضع الصحيح هو أن الروحانيات تكمل الجثمانيات وتكسبها رونقا وجلالا .

لهذا يجب أن يكون إشباع الغريزة الجنسية إشباعاً معتدلا نبيلا هو الرائد الأول للزوجين . وقد لا يرى الرجل فى هذا القول شيئا جديدا فهو لا يقصر فى أداء هذا الواجب نحو نفسه وقلما يجد فى ذلك صعوبة ما — غير أن المسألة لا تقتصر على وجهة نظر الرجل فقط، بل يجب أن تقاسمه فى ذلك المرأة . وهذا يعنى أن نصيبها من التمتع وإشباع غريزتها يجب ألا يكون فى المقام الأخير بالنسبة للرجل . فنى هذا مطلق الأنانية من جانبه . وعليه أن يراعى كل الاعتبارات المادية والمعنوية — الجثمانية والروحانية التى تكفل لزوجته شطرا كاملا من التمتع الجنسى . إذ ثبت بالتحرى والبحث العلمى أن كثيراً من الأمراض العصبية والباطنية ترجع فى حالة المرأة إلى نوع من

الحرمان الجنسى . ويجب ألا يغيب عن بال الرجل أن الزوجة إذا شعرت أن زوجها لا هم له الا إشباع غريزته فى أى وقت دون أن يكون لمزاج زوجته أى وزن لديه ، وأنه يعتبرها مجرد وسيلة لهذا الاشباع بحيث يكون دورها سالبا لا غير ، مثل تلك الزوجة التى لا تشاطر زوجها التمتع تفقد جمالها ونشاطها وتكره زوجها وزواجها ـ وهذه حال لا تتوفر معها سعادة الأسرة .

وعلى الرجل أن يلاحظ فى علاقته الجنسية مع زوجته ثلاث حقائق هامة : أولها أن الحاسة الجنسية عنده سريعة التأثر سريعة الهبوط ، بينما هى فى المرأة على عكس ذلك تماما بطيئة التأثر بطيئة الهبوط . أما الحقيقة الثانية فهى أن هناك فترات تكون المرأة فيها أكثر قابلية للتمتع الجنسى من غيرها . وأخص هذه الفترات ما يسبق الحيض وبعد زواله . والحقيقة الثالثة هى أن حالة المرأة من الناحية الصحية والمعنوية والمادية تؤثر تأثيراً كبيراً فى مبلغ استجابتها لنداء الطبيعة ، وأن الاختلاط الجنسى يجب أن يحاط بغلالة من الجمال الشعرى تكسبه حسنا وبهاءا فلا يكون آليا جافا . فاذا ما فهم الرجل هذه الحقائق وسار على هديها أمكنه أن يبنى علاقته الجنسية مع زوجته على أسس صحيحة سليمة . . . هذا هو الدرس الأول فى فن الزواج .

* * *

فتنة دائمة ....

أما الدرس الثانى للمتزوجين فهو أنه من الخطورة بمكان أن يعتقد الرجل أو المرأة أنه من العبث أن يحاول كل اجتذاب الآخر والظهور أمامه بأجمل مظهر ، ظنا منهما أن مثل هذه المحاولات كان لها ما يبررها قبل الزواج . أما وقد ضمهما منزل واحد وأصبحا شريكين فما الذى يضير الواحد منهما أن يكون كما هو لا يتجمل ولا يتصنع !! هذا خطأ أيها السادة وأى خطأ - إن الزواج هو بدء حياة جديدة . حياة يتخللها الكثير من المتاعب والمسئوليات ، فيجب على كل من الرجل والمرأة أن يخففا من وطأة هذه المتاعب بما يدخلانه على المنزل من ألوان الجمال . وأول لون من هذه الألوان هو محافظة كل منهما على رونقه بمثل الصورة التى كان يظهر بها أيام الخطبة .

كان الرجل قبل زواجه يعتنى بهندامه كل العناية عند ما يذهب لزيارة خطيبته ، ويستشير المرآة عدة مرات حتى لا يبدو فيه نقص أو شذوذ . ثم يذهب إليها باسما حاملا زهورا أو عطورا . وهو فى جلسته معها يزن الكلام ويتظرف فى الحديث ويعبر عن إعجابه بها بشتى ألفاظ الغزل . أما الآن وقد أصبحت تلك الخطيبة زوجة ، فقد تغير الحال وتلاشت هذه المظاهر بمرور الزمن . فهو على مائدة الافطار يضع الجريدة إلى جانبه ويدفع إلى زوجته كوبة الشاى بحركة جافة لتملأه دون أن ينظر إليها ، فإذا ما انتهى من ذلك قام بسرعة ليلحق الترام

دون أن يفكر فى تحيتها، كأنما زوجة اليوم لم تعد فتاة الأمس . وهو عند رجوعه إلى المنزل لا يفكر ولو فى فترات متباعدة أن يحضر معه باقة من الزهر أو قطعة من الحلوى ليثبت لزوجته أنها كانت فى ذاكرته يفكر فيها .. على هذه الصورة يفقد الرجل سلطانه على اجتذاب حب زوجته وتصبح حياته آلية ، ثم تجده بعد ذلك دائم الشكوى من أن الحياة أصبحت مملة لا لذة فيها ولا بهجة .

والزوجة كذلك ترتكب نفس الخطأ على نطاق أوسع وأعظم أثرا .. فى فترة الخطبة كانت الفتاة تقابل خطيبها فى أبهى الحلل وأبهجها منمقة الشعر معطرة الملبس - تدخل السرور إلى قلبه بحلو الحديث ورقة الأنوثة، وتشيعه إلى الباب بنظرات الحب والغرام ... أما وقد دخل الرجل فى المصيدة وأغلق عليه باب القفص الذهبى أو الحديدى، فلماذا تكلف نفسها كل تلك المشاق !! لعلها قائلة لنفسها إن الرجل لا يتطلب من زوجته ما كان يتطلب من خطيبته ، أو أنه إن تطلب ذلك لا يقدره، وهذا خطأ كل الخطأ فالرجل يحب أن يرى زوجته دائما فى أحسن هندام . والزوجة العاقلة هى التى تعنى بمظهرها بعد الزواج كما كانت تعنى به قبل الزواج بل أكثر . ويجب أن تفهم المرأة أنها لكى تجذب زوجها يجب أن تحافظ على جاذبيتها وجمالها - كذلك يجدر بالزوجة أن تعلم أن زوجها يرى غيرها من النساء خارج المنزل . ويراهن فى أحسن الحلل، وأنه يقارن بين من يرى فى الطريق أو الترام وبين زوجته

المهملة فى مظهرها التى تقابله عند عودته كما تركها فى الصباح عليها آثار العمل فى المنزل . كل هذا يجب أن تتدبره الزوجة وتعتقد أن ذلك المجهود الذى تبذله فى العناية بنفسها لايضيع عبثا، بل يكافئها عليه زوجها بحبه وعطفه، وأن إهمالها لمظهرها على عكس ذلك يتبعه إهمال زوجها لها وتفضيله المقهى على المنزل . والأخطر من هذا أن الرجل الذى يشعر بإهمال الزوجة لجمالها يبرر لنفسه تعويض هذا النقص فى حياته فى أماكن أخرى غير منزله لايسر الزوجة كثيرا أن تعرفها .

وهناك أمر آخر له علاقة بهذا الموضوع، وهو أن الكثيرات من الزوجات يهملن فى أداء واجباتهن نحو الأزواج بحجة اهتمامهن بشئون الأطفال . وفى الواقع أن هذه حجة واهية لايقبلها الزوج ولا يضايقه أكثر من أن يرى أنه قد احتل المكان الأخير فى قلب زوجته وتفكيرها بعد أن كان صاحب المقام الأول . فلتحذر الزوجة من هذا إذا كانت ترغب فى المحافظة على هناء نفسها وسعادة زوجها وأسرتها . ولتسع جهد الطاقة أن تحارب ذلك القانون القاسى «ما ملكته اليد زهدته النفس» فليس أقسى وأصعب من أن يطبق هذا القانون على الحياة الزوجية .

* * *

## ( الزوجية ليست احتكارا ).

أما الدرس الثالث وهو درس عسير الفهم على المتزوجين وبخاصة على الرجل ، فهو أن الرجل والمرأة بعد الزواج يجب ألا يحتكر أحدهما الآخر . فيعتقد الزوج أنه قد أصبح المصدر الوحيد لسرورها والموضع الوحيد لاهتمامها — كما تعتقد الزوجة أنها كل شيء فى حياة زوجها، وأنه إذا رغب أو طمع فى أن يلتمس نوعا من السرور بعيدا عنها فقد ارتكب جريمة الخيانة العظمى ، وحق عليه العقاب .

هذا الاعتقاد الخاطىء كل الخطأ يتعارض مع حقائق الحياة والطبيعة البشرية . تلك الطبيعة التى إذا أرغمت على السير وفق اعتقاد كهذا مسيطر على العقل أدى هذا لا إلى انتعاش الحياة الإنسانية بل إلى ذبولها وتضاؤلها .

حقا إن الفتى والفتاة اللذين يؤسسان حياتهما الزوجية على الحب المتبادل وتوافق الأمزجة والمشارب يعتقد كل منهما أن زميله هو المخلوق الفرد الذى يأمل أن ينال أكبر قسط من السعادة إلى جواره . .

غير أن هذا الاعتقاد يختلف كل الاختلاف عن النظرية القائلة بأن الزوج أو الزوجة يملأ الواحد منهما دنيا الآخر فلا يترك فراغا لأى شيء سواه .

ومن الجائز أن هذه النظرية الاحتكارية من جانب الرجل ترجع إلى عهد بائد كان عقد الزواج فيه يعتبر عقد ملكية تصبح المرأة بمقتضاه

ملكا خالصا للرجل تنتسب اليه وتحمل اسمه ، وفى مقابل ذلك تنسى شخصيتها وتتشكل وفق هواه ، لايكون لها رأى غير رأيه ولا تعمل إلا مايرضيه وإن كان لايرضيها . . . وليس من شك فى أن الطبيعة البشرية تأبى الاحتباس ولو كان ذلك فى حديقة غناء دانية القطوف .

والمرأة عندما وجدت أن القوانين والتقاليد قد ثبتت هذا الحق المطلق للرجل عملت جاهدة فى صمت بالغ الأثر ، على تطبيق هذا القانون الجائر على زوجها . فأصبحت تطالب بأن من حقها عليه كذلك أن يبقى فى تلك الحديقة إلى جوارها يتمتع بأشجارها وأزهارها ، بحيث لاتتطلع عينه إلى خارج السور ، ولا يستنشق نسيما يأتى من وراء الحواجز . وبذلك تصبح الحياة الزوجية راكدة مملة ليس فيها من جديد .

والرجل من جراء هذه الفكرة الاحتكارية المتسلطة عليه يحصد الثمار المرة لما يزرع . فهو يباعد بين زوجته والحياة العامة ، ويحرم عليها التدخل فى أمور كثيرة يرى أنها من اختصاصه هو ، وبذلك تتسع الهوة التى تفصلهما وتتباين عقليتاهما . فتصبح الزوجة عاجزة عن مبادلته الأفكار ، ولا تستطيع أن تتناول من الحديث إلا تلك الموضوعات الفاترة العابرة التى تدور حول شئون المنزل الداخلية . تلك الموضوعات التى لايجد فيها الرجل سرورا ولا يعيرها اهتماما . . .

فهل يحق للرجل بعد هذا أن يرفع صوته بالشكوى من انعدام البهجة فى الحياة الزوجية ! ؟

هذا الاتجاه الأنانى الذى يسير فيه الرجل أولا ثم تقتفى أثره زوجته إن عاجلا أو آجلا ، يتبعه حتما أن الواحد أو الآخر يحرم على زميله أية علاقة مع فرد من الجنس الآخر مهما انطوت عليه هذه العلاقة من براءة وأمانة . تلك الغيرة العمياء التى تدفع الزوج إلى أن يحاسب زوجته حسابا عسيرا عن كل نظرة أو لفتة أو كلمة ، والتى تدفع المرأة إلى أن تستجوب زوجها عن الوقت الذى يقضيه خارج الدار كيف قضاه . ومع من قضاه . غيرة ليس مبعثها الحب والثقة بل لون قاتم من الانانية والشك .

وعلينا بهذه المناسبة أن نصارح المرأة أنها إذا أرادت أن تجتذب زوجها إلى المنزل فلا يصرف جل وقته فى الخارج عليها أن تحاول تثقيف نفسها ، ولا تترك ذهنها يركد وأفق تفكيرها يضيق بحيث لا يتسع إلا لتافه الأمور المنزلية . وبذلك يجد زوجها فيها زميلا مطلعا ملما بالشئون العامة يستطيع المناقشة والاقناع وإسداء النصح ، فلا يسعه إلا احترامها والاعجاب بها .

ونخلص من كل هذا إلى أن الزواج ليس احتكارا من الجانبين أو من جانب واحد ، بل هو تعاون بين مخلوقين جمع بينهما الحب والاحترام . لكل منهما شخصية مستقلة لها ميولها وأفكارها الخاصة .

وليس من صالح أحد الشريكين أن يكون الآخر صدى لصوته ، بل من الأساسى أن يكون لكل صوت مستقل . وليس من ضرر مطلقا فى أن يختلف الاثنان على أمر من الأمور ويكون لكل منهما رأيه الخاص . فالديكتاتورية إن كانت نظاما سياسيا ممقوتا فهى بين الزوجين جحيم لايطاق .

وبهذه المناسبة نرى لزاما علينا أن نذكر أن هناك أوقاتا تمر على الرجل والمرأة ينشدان فيها العزلة . فيجب فى مثل هذه الظروف ألا يفسر هذا من جانب الزوج أو الزوجة بأنه قطيعة أو جفاء . فالمرء لايخلو من التفكير فى أمر أو أمور يرى من حقه وحده أن يفصل فيها بالرجوع إلى نفسه يحاسبها أو يستلهمها الحل . وعندئذ يكون على الطرف الآخر ألا يتدخل ويلح على زميله فى الافضاء اليه بدخيلة نفسه ، ظنا منه أن الرباط الذى يربطهما يخول له حق معرفة كل بواطن الأمور ، بل عليه أن يرقب من بعيد محترما سكوت الآخر حتى يفضى اليه بمكنون سره إن كان له فى ذلك رغبة .

وليس من الحكمة فى شىء أن يذكر الرجل لزوجته شيئا عن الجانب السيء من ماضى حياته مفتخرا بمغامراته النسائية . أو أن تسرد المرأة لزوجها بدافع الاعتزاز والخيلاء تاريخ الرجال الذين تقدموا لخطبتها قبل زواجها . فالماضى يجب أن يسدل عليه الستار . ولينظر

الزوجان إلى حاضرهما والمستقبل . فلا فائدة ترجى من نبش القبور ونشر العظام البالية .

* * *

*أمور تافهة ....*

وهذا درس قصير فى برنامج السنة الأولى من الزواج ، ولكنه درس أساسى هام يتوقف على فهمه شطر كبير من هناء الأسرة . وبه يستطيع الزوج والزوجة أن يتجنبا الكثير من الاحتكاك والتصادم فى حياتهما الزوجية . هذا الدرس ينحصر فى كلمة واحدة هى «التسامح» .

يجب ألا يظن الزوج أنه بزواجه قد وصل إلى ميناء هادئة فيها يجلس فى قاربه فى مأمن من أمواج الحياة الصاخبة . ويجدر بالزوجة أن تفهم أن حياتها الزوجية رواية كثيرة الفصول متعددة المناظر فيها الكثير من المفاجآت والمضايقات . وأنه من الطبيعى أنها ستصطدم مئات المرات بزوجها فى ذلك الطريق الضيق الذى ستسلكه معه . والسنة الأولى من الزواج هى الفترة الحرجة التى يتحتم فيها على شخصين كانا غريبين كل منهما عن الآخر أن يحاولا أن يتعرف أحدهما أخلاق الآخر ويدرس طباعه وميوله ، ويشكل نفسه إلى أكبر مدى وفق الحياة الجديدة ، بحيث يتحاشى التصادم العنيف ، وينحنى أمام العاصفة كالغصن الرطيب فتمر بسلام . . . وفى الحياة الزوجية مئات بل عشرات

المئات من الأمور التافهة التى يتكرر حدوثها كل يوم ، والتى يجب ألا يعيرها الزوج أو الزوجة كبير اهتمام ، وإلا كبرت وتجسمت وأفسدت عليهما الحياة ... فالرجل قد يرجع إلى المنزل فلا يجد زوجته قد هيأت له مايشتهى من الطعام . أو قد يكتشف عند ارتداء ملابسه أنها قد أهملت وضع الأزرار فى أكمام قميصه ، أو تركت فيه ثقبا دون حياكة ، أو يلاحظ أنها تقاطعه فى الحديث أمام الزائرين . أو تثير ضجة مع الخادم فى الصباح . إلى غير ذلك من الأخطاء الصغيرة .

والزوجة قد ترى زوجها يلقى رماد سيجارته على بساط غرفة الجلوس ، أو يبعثر مجلاته وأوراقه على مكتبه دون نظام . . . وقد يحدث أنه يتأخر عن ميعاد الغذاء أو العشاء دون مبرر . أو يمنعها عن زيارة ذويها كما تحب ، إلى غير ذلك من الأشياء التافهة .

كل هذه الأمور لا بد من حدوثها بين مخلوقين يعيشان مع بعضهما فى صعيد واحد حتى إذا كانا من الملائكة . ولكنها فى نهاية الأمر أمور قليلة الأهمية . سحابة صيف عما قليل تقشع — ولذلك يجب أن يتغلبا عليها بالتسامح والتفاهم فى صراحة تامة — فإنه لغبى ذلك الزوج الذى يتميز غضبا إذا بدر من زوجته تقصير طفيف فى حق من حقوقه فيرغى ويزبد كأن السماء قد انشقت — وإنها لحمقاء تلك الزوجة التى ترفع صوتها عاليا فى وجه زوجها إذا ما وجه اليها شيئا من اللوم أو العتاب الشديد . . . مهلا أيها القوم . . . لستم من ملائكة الله فى عصمة

من الخطأ . ورفقا بأنفسكم فالزوجية أرفع من أن تشوه بمثل هذا التهور . . واللين أجدى من العنف فى حل الصعاب والتغلب على مشاكل الحياة . وأسلم طريق يتبعه الواحد أو الآخر إذا رأى زميله فى حدة أو ثورة أن يصطنع المسالمة والموافقة ، حتى إذا هدأت الثورة وخمدت الغورة أقبل على رفيقه فى دعة وعطف يعتب عليه عتابا رقيقا فتصفو النفوس وترتاح الضمائر . وتتابع القافلة سيرها فى هدوء وأمان .

هذا الخطأ فى معاملة الزوج لزوجته والزوجة لزوجها ، يقترن به فى الكثير من الأحيان خطأ آخر يقترفه الزوج ، وهو أنه ينسى أو يتناسى مجاملة زوجته ومخاطبتها فى شىء من النعومة والرقة . . . يقول الزوج فى نفسه « قد كنت أصطنع ذلك أثناء الخطبة . أما الآن وقد أصبحت زوجتى فما الداعى لهذا التظاهر والتزويق . إنها لا تكاد تلحظ ذلك » . . إنك لواهم أيها الزوج المحترم . . . إن الأدب فى الحديث ورقة الكلم من الأمور الجوهرية فى الزواج ، والزوج الذى ينسى أن يدخل كلمتى « من فضلك » ، « شكرا جزيلا » فى حديثه مع زوجته هو زوج جاف يسىء إلى شعور شريكة حياته ويخلق فى الجو المنزلى تلبدا لا داعى له .

والزوجة تترقب من زوجها دائما أن يعبر لها عن حبه وإعجابه . فهى مثلا إذا اشترت ثوبا جديدا أو قبعة جديدة تتوقع أن يبادرها زوجها بكلمة استحسان أو إعجاب . . كلمة قصيرة لا تكلف الرجل

شيئا من الوقت أو الجهد ولكنها تنفذ الى قلب المرأة وتشعرها أن زوجها لم يفقد الحساسية والرقة . وأنه لا يزال يعجب بها كما كان من قبل .

والزوجة المهذبة تتوقع دائما أن يجاملها زوجها وبخاصة فى حضور الزائرين . كأن يجعلها تتقدمه فى الدخول والخروج أو يقدم لها مقعدا فى لباقة وسرعة، أو يطرى ماصنعت فى المنزل من طعام أو شراب أو يمتدح ذوقها فى تنسيق الأثاث . الى غير ذلك من المجاملات العابرة التى تصبغ على المعاملة ثوبا من الجمال والكياسة .

ونحن لا نرى تبريرا ما لأن يكون سلوك الرجل مع خطيبته مختلفا كل الاختلاف عن سلوكه مع زوجته . . تلك المخلوقة الوحيدة التى يأتى التظرف معها بأطيب الثمار . . ويجب ألا ينسى الزوج أن هناك أثراً طيباً آخر لحسن معاملته لزوجته ، ألا وهو انعكاس هذه الصورة على أطفاله فيشب الواحد منهم على جانب كبير من الأدب ولطف المعاشرة .

* * *

**كل فى نطاقه سير ....**

قرأت فى إحدى المجلات الانجليزية قصة طريفة لها مساس كبير بموضوعنا الذى نبحثه الآن ألا وهو سعادة الأسرة وإنى لذلك أسردها هنا لعظم فائدتها . قال الكاتب :—

كنت فى زيارة صديق من أصدقائى يشغل وظيفة مهندس معمارى فى إحدى الشركات . له زوجة قاربت الأربعين ممتلئة صحة وجمالا تبدو كأنها فى الخامسة والعشرين . وقد كان الجو المنزلى الذى يحيط بنا يشعر بالسعادة التى يتمتع بها الزوجان وبذلك الهدوء والسلام اللذان يرفرفان على المنزل .

وبعد أن ناولتنى قدحا من الشاى رأيت أن أوجه اليها سؤالا جريئا عن السبب فى تمتعهما بذلك القسط الوافر من السعادة، فابتسمت الزوجة ونظرت إلى زوجها فى حب ظاهر وقالت : سأجيبك على هذا السؤال فى صراحة تامة . لقد تزوجنى مستر ولتر ( وهو اسم الزوج ) بعد سنتين من الحب الطاهر البرىء. وقد كانت ميولنا متقاربة وأخلاقنا منسجمة كل الانسجام ، فسرنا فى طريقنا دون كبير اختلاف أو احتكاك . غير أن شيئا حدث بدأ يعكر الصفو وينذر باقتراب العاصفة، ذلك أن زوجى كان يشغل غرفة فى المنزل اتخذها مقرا لعمله . وقد كان قربه منى على هذه الصورة مدعاة لتدخله البرىء فى أعمالى المنزلية . ينصح تارة وينظم تارة أخرى ، ويطبق عليه الغزير على أمور المنزل ، حتى شعرت أن قلبى سينفجر من الغيظ . . . نعم إنه كان يعمل كل هذا فى رقة بالغة وبكل نية حسنة لا يتطرق اليها الشك.

ولكن تدخله كان يضايقنى أكبر المضايقة . . . فقررت فى نفسى أن أقوم بهجوم مضاد لعلى أرجعه إلى قواعده سالما . فبدأت منذ ذلك

اليوم أسأله عن عمله فى شىء من اللباقة . . ومن الطبيعى أن أسئلتى كانت تدل على جهل مطلق . ولكنه فى بادىء الأمر أظهر سروراً لاهتمامى بتفهم عمله وكان يشرح لى ما يمكن شرحه فى اغتباط واضح، فواليت الهجوم وتعمدت أن أظهر من الجهل وحب الاستطلاع ما يضايقه . فبدأ المسكين يتململ محاولا أن يخفى حنقه وراء ابتسامة متكلفة . فعرفت أنى قد أصبت المرمى وأوشكت جهودى على النجاح — فعاودت الكرة مرة بعد أخرى حتى نفذ صبره . ففى إحدى الليالى عقب هجوم عنيف من جانبى لم يطق صبرا، فقال لى فى رقة مصطنعة « أريد ياعزيزتى أن أقول لك شيئا طالما شعرت به . ولكنى أخاف أن أجرح شعورك » . فعلمت ماذا يريد أن يقول وأجبته « ماذا فى الأمر ياعزيزى ولتر . خيراً إن شاء الله . » قال . . « أليس من المستحسن أيتها العزيزة أن تتركى فن المعمار وكل مايتعلق به من خطوط وأرقام إلى عنايتى الخاصة ؟ إنى أعلم أنك تودين مساعدتى، ولكن أنى لك هذا ولم تصيبى من هذا العلم قليلا أو كثيراً ؟ فهل يغضبك فى شىء أن تتركينى وشأنى فى المستقبل غارقا فى عملياتى الحسابية المعقدة !؟ » . .

فابتسمت وأجبته على الفور « كلا أيها العزيز إنه ليسرنى ذلك كل السرور . غير أنى أشترط لذلك شرطا صغيرا . . هل يضيرك فى شىء أن تتركنى وشأنى غارقة فى عملياتى المنزلية المعقدة ! ؟ »

فانفجر زوجى ضاحكا بعد أن فهم تلك المناورة البديعة التى قمت

بها فى إحكام شديد وقال « حقا إنك لبارعة ماهرة ! لقد كنت سمحا كل السماحة فأرجو المعذرة » . ومنذ ذلك الوقت كان كل منا يعمل فى نطاقه دون تدخل معيب من جانب الآخر . . . »

والذى نريد أن نستخلصه من هذه القصة أن لكل من الزوج والزوجة ميدانا يعمل فيه ويجب أن يكون مستقلا فى عمله لا يحرجه الآخر بالتدخل فيه مهما كان من حب بينهما . وأن الانسان جبل على حب الحرية يثور اذا اعتدى عليها أى مخلوق مهما كان عزيزا لديه .

ويهمنا أن ننصح الزوجة بهذه المناسبة ألا تستقبل زوجها عند عودته من العمل ظهرا أو ليلا بسيل متدفق من الشكوى من سوء تصرف الخادم أو مغالطة البائعين أو عدم نظافة الكواء الى غير ذلك من الأحاديث المملة التى لا يصح أن تكون مادة الكلام على مائدة الطعام .

كذلك لا يجدر بالزوج أن يرهق زوجته بذكر متاعب عمله أو مضايقات زملائه . بل يجب أن يترك الرجل متاعبه فى مقر عمله ويدخل المنزل باشا يستقبل نوعا جديدا من الحياة .

* * *

## المرأة الفاضلة ناج لزوجها

أما الدرس الأخير من دروس الزوجية فهو أن المرأة قد تكون من عوامل رفعة زوجها أو تدهوره . وإليكم هذا الدرس على صورة قصة : —

كمال وفؤاد أخان تزوجا فى يوم واحد وكان اعتماد أقاربهما وأصدقائهما أنهما قد وفقا فى هذا الزواج وأن المستقبل سيبسم لهما .

كان كمال يشغل وظيفة مراجع لحسابات شركة كبيرة وينال اول راتبا لا يزيد على الخمسة عشر جنيها فى الشهر . وكان متوسط القدر والذكاء ولكنه كان يمتاز بالدقة فى عمله والاخلاص له . وقد تزوج فتاة كانت تبادله الحب وترغب رغبة أكيدة فى أن تكون شريكة صادقة وفية لرجلها تقاسمه السراء والضراء وتقدم له المساعدة إذا رغب فيها . لم تكن هذه الزوجة تبنى قصورا فى الهواء أو تعلل النفس بالآمال الخلابة ، ولكنها كانت زوجة عملية تزوجت وأخلصت لأنها أحبت . ولم تكن لتتردد أن تتزوج هذا الرجل حتى لو كان فقيرا لأنها كانت واثقة من متانة خلقه ومثابرته على العمل . وقد قررت ألا تكون أقل منه مثابرة وجدا . . .

مضت سنة تلو الأخرى وكمال يجد ويعمل ، فبدأ يصعد سلم الرقى درجة درجة وزوجته ترقبه من بعيد مشجعة إياه مظهرة كل الفخر بجده

واجتهاده . إذا تعثر سارعت اليه تشدأزره وإذا تردد بادرت تستنهض همته . حتى أصبح بعد سنوات مديراً عاما للشركة وانتقل من مسكنه المتواضع إلى قصر منيف فى طريق الهرم وهو الآن يفكر فى ترشيح نفسه لعضوية النواب توطئة لأن يكون وزيرا للمالية يوما ما . ولو أنك سألته عن السر فى نجاحه ورقيه لقال لك على الفور إن الفضل فى هذا يرجع الى تشجيع زوجته وعطفها وإلى تلك الروح النبيلة التى كانت تعامله بها . وكانت زوجته تعلم قيمة ما أسدته الى زوجها من خدمات، ولكنها لم تشعره يوما بذلك ، بل على النقيض كانت تتناسى أمامه كل مجهوداتها وتدخل فى روعه أن همته العالية وقلبه القوى الوثاب وعزيمته الصادقة هى التى جعلت منه رجلا يشار اليه بالبنان .

أما فؤاد فقد كان عند زواجه يشتغل بالمحاماة . كان مرحا نشيطا يرجى له مستقبل زاهر فى مهنته . وكانت زوجته من أسرة رقيقة الحال طالما منت نفسها بأن تتزوج رجلا له مكانة سامية يرفعها معه الى مستوى الطبقات الراقية . وقد وجدت فى زوجها تلك الضالة المنشودة فبدأت تبنى قصورا شامخة من الآمال وتتخيل نفسها فى قصر جميل يطل على النيل وتحت أمرها سيارة فخمة تذهب فيها إلى المجتمعات الراقية حيث يشير اليها الناس بأنها زوجة فلان باشا . ! !

مرت الأيام والسنوات وزوجها لايزال حيث هو لم يحقق تلك الآمال التى كانت زوجته تحلم بها . فبدأت الزوجة تتبرم بالحياة على

حين لم يكن هناك مسوغ للتبرم، لأنها كانت تعيش فى سعة وكان زوجها مخلصا محبا وفيا .

ولم تستطع الزوجة الحمقاء أن تخفى عن زوجها ما يساورها من ألم . فأخذت تظهر له فى كل مناسبة أنه لم يكن عند حسن ظنها به . ومن أمثلة ذلك أنه كان اذا أخبرها بأن أحد عملائه قد تركه وذهب الى محام آخر قالت له فى شىء من السخرية « طبعا » ... واخذت تشعره دائما انها سيئة الحظ قد خاب ظنها فيه . بل تجاوزت ذلك الحد وصرحت له بأنه قد خدعها بزواجه منها . وكانت إذا صادفه حظ عاثر فى قضية من قضاياه لا تتردد فى إرجاع ذلك الى عجزه وقلة كفايته ولم يدر بخلدها يوما ان تشجعه أو تعطف عليه ، بل على النقيض من ذلك كانت ترى انها هى التى يجب أن تواسى فى حظها المنكود .

وكانت كلما رأت أخا زوجها يخطو إلى الرقى بخطوات واسعة بينما لا يزال زوجها حيث كان ، ازداد حقدها عليه وتبرمها بالحياة ...

من ذا الذى يرى ذلك الزوج المسكين الحائر ذاهبا الى مكتبه فى خطوات بطيئة مكتئبا مطرقا كاسف البال . او يشاهده جالسا فى غرفته حزينا مشتت الفكر ، وقد انفض عنه عملاؤه الا ويحكم أن السر فى هذا التدهور يرجع إلى ذلك المنزل الذى تسيطر عليه امراة حمقاء ضعيفة الخلق قد خلت نفسها من الرقة والسمو ! !

* * *

هذه بعض الدروس القصيرة قدمناها إلى المتزوجين والذين يقدمون على الزواج — لعل فيها عظة وعبرة — ولعلها تعينهم على تفهم معنى الزوجية وتساعدهم على حل مشاكلها فترفرف السعادة على أسراتهم .

* * *

# المشكلة الثانيـــة

## (تحديد النسل)

من المشاهد الآن أن أكثر الأسر فى العالم الممدن تحدد النسل . وأقصد بذلك ان الوالدين يحاولان التحكم فى عدد الأطفال، وفى الفترة التى تنقضى بين مجىء طفل وآخر . والذى نلحظه فى هذا الصدد أن الطبقات الغنية والمتعلمة هى التى تسبق غيرها من طبقات الشعب فى هذا المضمار . وهى تفعل ذلك سواء رضى رجال الدين او غضبوا . وسواء سمحت بذلك قوانين الدولة او حرمته. وعلى هذا فالتيار مندفع فى طريقه لا يكاد يقف فى سبيله شىء .

وتحديد النسل ليس ظاهرة غريبة أو جديدة، ففى الجماعات المتأخرة كان الآباء ، ولا يزالون ، يئدون الأطفال . وفى الجماعات الأكثر رقيا تورع الآباء عن هذا العمل ولكنهم أجهضوا النساء . اما فى المجتمعات التى نالت نصيبا وافرا من التقدم العلمى فإنهم يحاولون الحيلولة دون التلقيح بوسائل كيميائية أو آلية — وهذا هو المظهر الحديث لتحديد النسل — مظهر يختلف عن الوضع القديم فى اساليبه وفى ذيوعه واتساع نطاقه .

وقد وقفت الحكومات فى الدول الممدنة موقفا مختلفا إزاء هذه

الحال . فى امريكا وفرنسا وبلجيكا والسويد سنت القوانين التى تحرم نشر أى شىء يعتبر تشجيعا على تحديد النسل،أو بيع العقاقير والاجهزة التى تستعمل لهذا الغرض — أما فى انجلترا فليس هناك من القوانين ما يحرم ذلك .

على أن الاجهاض فى أكثر بلاد العالم المدن يعتبر جناية إلا إذا قرر طبيبان أو أكثر أن هذه العملية هى الوسيلة الوحيدة لانقاذ حياة الأم،فى انجلترا تعتبر كل محاولة غير شرعية للاجهاض من جانب المرأة الحامل نفسها أو غيرها ، جناية يعاقب مرتكبها بالحبس مع الأشغال الشاقة مدداً تختلف باختلاف الظروف ، ويترك تقديرها للمحكمة — وإلى القارىء نص المادة ٥٨ من قانون سنة ١٨٦١ الخاص بالجرائم التى ترتكب ضد النفس .

"Every woman, being with child, who with intent to procure her own miscarriage, shall unlawfully administer to herself any poison or other noxious thing, or shall unlawfully use any instrument or other means whatsoever with the like intent, and whosoever, with intent to srocure the miscarriage of any woman, whether she be, or be not with child, shall unlawfully administer to her or cause to be taken by her any poison or other noxious thing, or shall unlawfully use

any instrument or other means whatsoever with the like intent, shall be guilty of felony, and being convicted thereof shall be liable, at the discretion of the Court, to be kept in penal servitude for life or for any term not less than three years — or to be imprisoned for any term not exceeding two years, with or without hard labour, and with or without solitary confinement.

وهناك قوانين مماثلة فى كل بلاد العالم . ومع هذا فالاجهاض عملية دائمة الحدوث ، وقلما يمكن إثباتها أو عرضها امام القضاء . ويجدر أن نشير هنا الى أن الاجهاض ، ما لم يباشره طبيب إخصائى يعرض حياة الأم للخطر سواء استعملت فيه الأجهزة أو العقاقير التى تروجها الشركات الصناعية والتجارية سرا .

نعود الآن إلى تحديد النسل عن طريق الحيلولة دون التلقيح فنقول إنها ظاهرة انتشرت فى السنوات الأخيرة انتشارا هائلا فى كل العالم الممدن بما فى ذلك الدول التى تحرم ذلك قانونا — لهذا يحق لنا أن نتساءل اولا عن السبب الذى جعل المدنية الحديثة تقترن بهذه الظاهرة ثم عن العلة فى ان الطبقات المستنيرة تلجأ الى تحديد نسلها قبل الطبقات الفقيرة الجاهلة .

أما عن الشق الأول من السؤال فنقول إن المدنية الحديثة قامت فى أكثر الدول على الاشتغال بالصناعة بعد أن كانت الزراعة هى الحرفة الرئيسية . وبهذا تغير الوضع الاقتصادى والاجتماعى للأسرة كما قدمنا فى الباب الأول من هذا الكتاب . . فقد كان من صالح الأسرة الزراعية أو الرعوية أن تكون كبيرة العدد مرهوبة الجانب قوية العصبية . ولذا كان كل هم الرجل أن يتزوج صغيرا وينجب أكبر عدد من الأطفال فى أقصر وقت ممكن . فلا يكاد هؤلاء يكبرون حتى يشاركوا أباهم فى أعمال الحقل ورعى القطعان دون أن ينفق عليهم قليلا أو كثيرا . ويعزز هذا الرأى ما نشاهده الآن فى الريف المصرى وفى كل البلاد المشتغلة بالزراعة كالهند أو الصين ، من كثرة عدد الأبناء فى الأسرة الواحدة .

أما الآن وقد أصبحت الصناعة الحرفة السائدة وتشتت أفراد الأسرة فى جهات مختلفة ، وسنت القوانين التى تحرم اشتغال الأطفال بالصناعة قبل سن معينة ، فقد تلاشى أو تضاءل الدافع الذى كان يشجع الرجل على الإكثار من الذرية — ألا وهو مساعدة الأبناء للأب فى عمله — كما أن ضعف روابط الأسرة ، وهو من نتائج الاشتغال بالصناعة ، قد جعل الأبناء لا يشعرون كثيراً بضرورة مساعدة ذويهم على النحو السابق . بل أصبح كل إنسان يرعى شئونه الخاصة ، حتى إذا كان ذلك على حساب غيره . لذا أصبح الآباء

لا يميلون إلى الإكثار من الذرية لأن فى هذا الإكثار تضحية كبيرة من الوجهة المالية والصحية دون أن يقابلها مقابل .

أما عن الشق الثانى من السؤال ، وهو السبب فى أن الطبقات الغنية والمستنيرة أسبق من غيرها إلى تحديد النسل ، فنقول إن الرجل والمرأة فى الأسر المثقفة يقصدان من الزواج تحقيق أغراض أخرى أكثر من مجرد إيجاد الذرية. فالشاب يغرم بإحدى الفتيات فيتزوجها. لا لأنه يريد أن ينجب منها أطفالا ، بل لأنه يريدها لنفسه ، فالزواج فى نظره ونظرها متعة شرعية بريئة يتوجان بها حياتهما الغرامية ، وهما يرميان كذلك إلى تكوين المنزل الذى يشعران فيه بنعمة القرب والاستقلال فى المعيشة — أما الأطفال فإنها تأتى عرضا — أو قل إنها من وجهة نظر الكثيرين شر لا بد منه . وعلى هذا فالرجل والمرأة يسعيان إلى الحد من الذرية حتى لا تضيع بهجة الحياة وحتى لا يصبحا مجرد ألات تعمل لتحصيل الرزق .

وهناك عامل آخر لايقل عن هذا أهمية ، وهو أن الرجل المستنير يرغب فى أن يعيش فى مستوى اجتماعى راق . وله مثل عليا يجب أن يربى أولاده وفقا لها . فهو لذلك يرى أن الإكثار من الذرية لايتفق وهذه المثل العليا ، ولا يمكنه من الوصول الى ذلك المستوى الاجتماعى الرفيع الذى يصبو اليه . هذا فضلا عن أن الحياة الحديثة أصبحت حياة معقدة كثيرة النفقات ، وبخاصة فى المدن الكبيرة ، حيث يتحتم

على المرء أن ينفق قدرا كبيرا من المال ليتمتع بمنزل صحى وغذاء ملائم وملبس محترم . وبالاضافة إلى هذا كله أصبح التعليم واجبا على الآباء نحو بنيهم وبناتهم على السواء من سن الخامسة إلى سن العشرين فى المتوسط . وهذا عكس ما كان يحدث قديما عند ما كان الولد إذا بلغ العاشرة من العمر حمل نصيبا من العمل فى الزراعة . كما أن البنت كانت تتزوج فى سن مبكرة جدا قبل أن تحمل والدها قليلا أو كثيرا من الأعباء المالية .

لذلك يفضل الأب والأم اللذان يقدران المسئولية ويعرفان واجبهما نحو بنيهم حق المعرفة ، أن يقللا من الذرية ، حتى يستطيعا أن يكفلا لأبنائهما قدرا رفيعا من التربية والتعليم — وحتى يتذوقا لذة الحياة المستقرة الهادئة ، فى مأمن من الأزمات المالية التى تفسد رونق العيش وتقفز بالمرء الى طور الكهولة قبل الأوان .

ولا يقل عن هذه العوامل أثرا ضعف نفوذ رجال الدين على الطبقات المستنيرة التى تستطيع أن تفهم نصوص الدين والشريعة فهما صحيحا . فلم يعد أمثال هؤلاء يأتمرون بأمر رجال الدين ويطيعونهم طاعة عمياء دون مناقشة واقتناع كما كان الحال فى القرون الوسطى والقديمة . بل أصبحوا يطلبون أن تقدم الأدلة والبراهين التى تثبت أن ضبط النسل من الأمور التى حرم الله . وقلما يستطيع رجال الدين أن يأتوا بها .

* * *

## تحديد النسل من الوجهة الصحية

يقول المعارضون فى تحديد النسل ألا ضرر مطلقا على المرأة من كثرة النسل لأن الطبيعة قد هيأتها لهذا الغرض . فلا يجب أن نقاوم عمل الطبيعة ونحرم المرأة من الإكثار من الذرية وقتما تجىء وكيفما تجىء . غير أن الواقع غير ذلك فى الحيوان والانسان على السواء . فالنحلة مثلا تنتج فى السنة الأولى والثانية إنتاجا قويا حسنا . ولكنها تضعف بعد ذلك ويضعف إنتاجها . ولذا يستبدلون بها غيرها . كذلك تسوء صحة المرأة وتنتابها الأمراض كلما أسرفت فى الذرية . تقول مارى ستوبس Dr. Mary Stopes إن تقرير مصلحة الصحة الانجليزية فى سنة ١٩١٩ يدل على أن كثيرات من بين السبعين ألفا من النساء اللاتى ولدن فى هذه السنة تأثرن أثناء الحمل وفى الولادة بحيث أصبحن غير صالحات للحمل بعد ذلك . كذلك تدل الأبحاث الطبية الحديثة على أن كثرة الولادة قد تنشأ عنها أورام سرطانية فى الرحم تنتهى بالوفاة . وبغض النظر عما يقوله الأطباء فإن فى إمكان كل فرد منا أن يلاحظ فى نطاق أسرته مايقاسيه النساء أثناء الحمل والرضاعة ، ومايبذلن من جهد وعناء فى تربية الأولاد والعناية بهن أثناء المرض مما يؤثر تأثيرا سيئا فى صحتهن ، ويؤدى إلى ذبول جمالهن وسرعة انحدارهن نحو الشيخوخة . ولذا كان الواجب على كل زوجين أن يحددا نسلهما بما يتفق مع الصحة العامة للأولاد والأم . ومن المستحسن أن تكون

الفترة بين كل ولادتين ثلاث سنوات أو أربع . تتمكن الأم خلالها من استعادة صحتها والعناية بطفلها حتى يصل إلى مرحلة تمكنه من العناية بنفسه إلى حدما بحيث لايحتاج الى عناية أمه إلا قليلا . وبذلك تستطيع الأم أن تتحمل أعباء الطفل الجديد حملا وولادة وتربية . وسهرا على صحته . فتقل أمراض النساء وتتضاءل نسبة الوفيات بين الأطفال الذين يموت أكثرهم نتيجة إهمال فى التربية الصحية .

على أننا نجد من الواجب أن نشير هنا إلى أن عدم انتشار الثقافة الصحيحة الخاصة بتحديد النسل يدفع الكثيرات من الأمهات إلى استعمال عقاقير ضارة بالصحة يروجها الدجالون وأدعياء الطب كما تروجها الشركات التجارية التى ترمى إلى الكسب فقط . . ونحن نرى أنه ما دام تحديد النسل حقيقة واقعة تمارسها أكثر الأسر فمن المستحسن حفظا للصحة العامة أن تنور الأذهان إلى خير الأساليب الصحية التى تفى بهذا الغرض مع عدم المساس بصحة الأمهات .

والأكثر من هذا أن تحديد النسل على هذه الصورة أقرب إلى الانسانية وأقل ضرراً بصحة الأم من الاجهاض ، تلك العملية التى يلجأ إليها الكثيرات من النساء مع ما فيها من خطورة على حياتهن .

***

## تحديد النسل وعلاقته بتحسين الذرية

هناك طائفة من محبذى تحديد النسل ينادون بوجوب تشجيع الطبقات الفقيرة على الحد من ذريتهم حتى لا تمتلىء الأمة بالعناصر الرديئة . وهؤلاء قد هالهم تناقص نسبة المواليد بين الأسر الغنية بعكس الطبقات الدنيا ، مما ينشأ عنه حتما نقص فى أصحاب الكفايات الذين يشغلون المراكز العليا فى الهيئة الاجتماعية ويعتبرون قادة الفكر والمسيرون لدفة الشئون السياسية .

وللمتطرفين من هؤلاء نظرية تقول إن الصفات الخلقية والعقلية للأطفال تتوقف إلى حد كبير على صفات الوالدين ، فالمجرمون ينجبون المجرمين وضعاف العقول يورثون أطفالهم ضعف العقل وهكذا . وهم لذلك يرون أن مكافحة هذا الخطر تقتضى أن تشرف الدولة على الزواج إشرافا دقيقا بحيث تحول دون زواج أصحاب الخلق الاجرامى والأمراض الخطيرة . أو بعبارة أخرى ينادى هؤلاء بوجوب تحسين نسل الانسان بمثل الطرق التى تتبع فى تحسين نسل الطيور والحيوانات . كالدجاج والكلاب والخيول .

ولكن رغم أن هذه النظرية تبدو معقولة لأول وهلة إلا أنها فى الواقع خاطئة من أساسها . فأولئك الذين يهتمون بتحسين نسل الطيور والحيوان يوجهون اهتمامهم إلى المميزات الجثمانية فقط ، على حين أن الراغبين فى رفع مستوى ذرية الانسان يقصدون الناحية الخلقية

والعقلية لا الناحية الجثمانية . فاذا عرفنا أن البحوث العلمية الحديثة قد أثبتت أن الصفات العقلية والخلقية لا تكاد تورث بل تتوقف على البيئة التى ينشأ فيها الطفل تبينا بسهولة وجه الخطأ المنطق فى هذه النظرية .

والحقيقة هى أن الطفل عند ولادته يقبل التشكل إلى حد كبير جدا وفق البيئة التى يعيش فيها ، فاذا أنجب موسيقى ولدا وأصبح هذا الولد عازفا ماهرا ، فما ذلك إلا لأنه قد عاش فى وسط موسيقى لا لأنه قد ورث الملكة الموسيقية عن أبيه . والطفل الزنجى إذا نقل بعد ولادته الى انجلترا أصبح بعد فترة قصيرة كأطفال الانجليز من حيث العادات والخلق — وعلى هذا فأبناء المجرمين لا يرثون عن والديهم نزعة الاجرام بل يتشبعون به بالتقليد والممارسة . فإذا أرسل أمثال هؤلاء إلى الاصلاحيات منذ نعومة أظفارهم شبوا على عادات حميدة تختلف كل الاختلاف عن عادات آبائهم . لذلك نستطيع أن نقرر أن أثر البيئة يفوق إلى حد بعيد عامل الوراثة من ناحية المميزات العقلية والخلقية — أما الصفات الجثمانية فى الانسان كلون البشرة وملامح الوجه فهى وراثية ولا جدال فى ذلك .

على أن هذا لا يمنع من أن تحتم الدولة إجراء الكشف الطبى الدقيق على راغبى الزواج بحيث تحول دون زواج أصحاب الأمراض التناسلية التى تنتقل بالوراثة حتى يتم شفاؤهم .

أما أن نشجع تحديد النسل بين الطبقات الجاهلة والفقيرة بدعوى أن هؤلاء يورثون الجهل والفقر لأبنائهم فهذا هذيان ومغالطة ، لأن علاج هذه الحال لا يجيء بمنع الذرية بل بانتشال هذه الطبقة من وهدة الجهل والفقر .

* * *

## تحديد النسل من الوجهة الاقتصادية

فى سنة ١٧٩٨ أصدر الكاتب الانجليزى توماس روبارت مالتس Thomas Rol ert Malthus كتابا ملؤه التشاؤم من مصير العالم إذا اطردت الزيادة فى نسبة المواليد . وقد لخص رأيه فى أن التناسل يتبع فى سيرة متوالية هندسية أساسها العدد (٢) على هذه الصورة: — ٢ — ٤ — ٨ — ١٦ — ٣٢ وهكذا ، بينما يتبع إنتاج المواد الغذائية متوالية حسابية أساسها العدد (١) أى يكون على هذه الصورة :- ١ — ٢ — ٣ — ٤ وهكذا . وقد قرر هذا الرجل أن العالم يبلغ الضعف كل خمسة وعشرين سنة . وعلى هذا الأساس كان يرى أن العالم سينتحر جوعا إذا ظل على هذا المنوال من التضخم - ولذا كان ينصح بوجوب تأخير الزواج أو التعفف الجنسى لمن استطاع إلى ذلك سبيلا .

ولقد قام أتباع هذا الكاتب من بعده يرددون نفس النغمة ويقولون إن علاج الفقر الناتج عن قلة المواد الغذائية لا يكون إلا

بتحديد النسل والاقلال من الذرية بقدر المستطاع . وبذلك يرتفع مستوى المعيشة .

وأكبر خطأ وقع فيه هؤلاء وغيرهم من محبذى ضبط النسل كوسيلة لتجنب خفض مستوى المعيشة ، هو أنهم خلطوا بين نقص القدرة الشرائية عند الأفراد ونقص الانتاج الزراعى العالمى . فكانوا يقصدون الأول إذ يتكلمون عن الثانى . وقد أثبتت الأيام أن هذا التشاؤم لم يكن فى موضعه . لأن الانتاج العالمى لم يكن بطيئا كما كانوا يظنون بل على العكس نرى أسواق العالم مغمورة بالمنتجات الزراعية التى طالما أتلفها أصحابها أو طرحوها فى البحر إذ عجزوا عن تصريفها ، ورأوا أن فى بقائها تأثيراً سيئا على الأسعار . . والواقع أن العالم فى مقدوره أن ينتج من المواد الغذائية ما يكفيه ويزيد ، سواء أحدد الناس نسلهم أم أطلقوه . ووجه الخطأ أن هـــذا الانتاج لا يحدده الاحتياج بقدر ما تحدده الرغبة فى الربح ـ كما أن القوة الشرائية عند الأفراد والأمم ليست موزعة توزيعا عادلا . فكما أن الفرد فى الأمة الواحدة يثرى على حساب مائة فرد ، كذلك تثرى الدولة على حساب غيرها من الدول الأخرى ـ وما الحروب الحديثة إلا نتيجة حتمية للتصادم الاقتصادى بين الأمم الصناعية وتنافسها على الأسواق التى تستطيع أن توزع فيها منتجاتها الزراعية والصناعية .

وقد يتبادر إلى الذهن أن نقص نسبة المواليد فى الدول الغربية راجع الى ذيوع وسائل ضبط النسل بها وأخـــذها بنظرية مالثس وأشياعه . غير أن هذه الفكرة تخطئها الاحصاءات . ففى هولندا التى تعتبر أقدم الأمم الأوروبية استعمالا لوسائل تحديد النسل وأكثرها تسامحا فيها بل وتشجيعا لها ، تبلغ نسبة المواليد ٢٣,٨ فى الألف بينما هى فى فرنسا ١٨,٨ وفى السويد ١٦,٩ ، مع أن حكومة هولندا اعترفت بهذا النظام منذ ١٨٩٥ ،ولم تمانع فى قيام المستوصفات الخاصة بهذا الغرض فى جميع أنحاء البلاد . على حين أن فرنسا والسويد تعتبران كل محاولة لضبط النسل أو التشجيع عليه جريمة يعاقب عليها القانون .

وهنا لا بد لنا أن نكشف الستار عن الأسباب الحقيقية التى يرجع اليها تدهور نسبة المواليد فى الدول الأوروبية والأمريكية . أى تلك الدول التى أخذت بأسباب المدنية الغربيـــة الحديثة ، وعدم تدهوره فى الأمم الشرقية وغيرها من الأمم التى لم يطغ عليها الترف العصرى .

يرجع نقص نسبة المواليد فى المجتمعات الأوروبية والأمريكية الى الأسباب الآتية : —

١ — شيوع العزوبة والتأخر فى الزواج .
٢ — العجز التناسلى أو ضعف الخصوبة الجنسية .

٣ — ذيوع العقم عند الرجال والنساء .

٤ — الإجهاض وضبط النسل .

أما عن السبب الأول فالثابت أن النساء والرجال على السواء يتأخرون الآن فى زواجهم الى ما بعد الثلاثين من العمر . وهذا راجع الى طول مراحل التعليم والى صعوبة الحصول على عمل يطمئن فيه الرجل على مستقبله كعائل أسرة قبل هذا السن . ولما كانت المرأة اكثر ما تكون خصوبة جنسية فى سن العشرين، ثم تقل خصوبتها بعد ذلك حتى تكاد تتلاشى فى سن الخمسين ، كان كل تأخير فى زواج المرأة من شأنه تقليل ذريتها . وقد دل إحصاء أجرى فى بلاد السويد من سنة ١٨٩٦ الى سنة ١٩٠٠ على أن النساء اللاتى يتزوجن بين العشرين والخامسة والعشرين يقل نسلهن عمن يتزوجن قبل هذه السن بمقدار ١٧ ٪، ومن يتزوجن بين الخامسة والعشرين والثلاثين ٣٠ ٪، ومن يتزوجن بعد الأربعين ٤٤ ٪ .

يضاف الى هذا أن زيادة عدد الفتيات عن الرجال سواء كان ذلك راجعا الى عمل الطبيعة نفسها أو الى الحروب التى تفنى الرجال دون النساء قد أدى الى بقاء كثيرات من الفتيات دون زواج، وشجع الكثيرين من الرجال على عدم الزواج اكتفاء بما يتخلل حياتهم من لهو غير بريء لا يصحبه نسل فى أكثر الأحوال .

أما عن السبب الثانى فقد أثبتت التجارب العلمية التى أجريت على

بعض أنواع الحيوان كالفراخ والكلاب والطيور أن قدرتها التناسلية تقل إذا نقلت من حالة البداوة إلى حالة أرقى وأكثر عناية . ولقد تعرض الانسان إلى مثل هذه المؤثرات خلال خروجه من حالة الهمجية إلى حالة المدنية . وهو فى العصور الحديثة أكثر انغماساً فى الترف من أى عصر مضى .

ومن الثابت أن المرأة القديمة كانت أكثر خصوبة من المرأة الحديثة . بل إن ولادة طفلين أو ثلاثة فى المرة الواحدة كانت أكثر حدوثا منها الآن . لهذا تتناسب الخصوبة الجنسية تناسبا عكسيا مع درجة الترف والنعيم التى يعيش فيها الانسان . ويعزز هذه الظاهرة الآن كثرة أطفال الطبقات الفقيرة التى تعيش فى القرى فى منأى عن المدنية الحديثة وقلة أبناء الطبقات الغنية التى تعيش فى جو متكلف وتنغمس فى الملذات التى تتلف الأعصاب وتضعف الحيوية . وكلنا نسمع بأسر مصرية ريفية يبلغ عدد أطفالها العشرة والخمسة عشر . بينما لا يزيد عدد أبناء أغنيائنا عن الثلاثة أو الأربعة .

وقد دل إحصاء سنة ١٨٩٠ فى فرنسا على أن مليونين من المتزوجين بدون ذرية ، ٢½ ذوو طفل واحد ، ٢,٣٠٠,٠٠٠ ذوو طفلين ، ١½ ذوو ثلاثة أطفال ، ومليونا واحدا ذوو أكثر من ثلاثة أطفال . وهذا يبين فى جلاء ووضوح أن المدنية الحديثة وما يصحبها من تعقيد فى الحياة ومعيشة فى مدن مزدحمة بالسكان لا تتمتع بأشعة الشمس أو

الهواء النقى إلا قليلا ، وما تفرضه على الناس من قيود ، وما تجره فى أذيالها من انتشار المسكرات والمخدرات واحتباس فى ثنايا الحانات وأماكن الرقص — كل هذا يقلل من قدرة الرجل والمرأة على التناسل .

أما شيوع العقم فهو أيضا من نتائج المدنية الحديثة إلى حد كبير لأن العلم الحديث وتقدم أساليب العناية بالصحة .رغم الخدمات التى يؤديها للمجتمع بوجه عام ، يساعد على الحياة أطفالا يولدون ضعاف الأجسام مصابين بكثير من العاهات . ولولا العناية بهم — عناية تحول دون موتهم ولكنها لا تقوم أجسامهم — لماتوا فى دور الطفولة أو بعدها بقليل — وهؤلاء ، ولو أنهم أحياء ، إلا أنهم لا يصلحون كأزواج أو زوجات قادرين وقادرات على التناسل . وحتى إذا تناسلوا كانت ذريتهم ضعيفة معتلة الصحة .

أما الاجهاض فالاحصاءات عنه نادرة جدا لأن هذه العملية تعتبر جريمة فى أكثر دول العالم ، وليس من المعقول والحالة هذه أن يتقدم إنسان إلى القضاء يشكو نفسه — ولهذا فالأرقام دون الواقع بكثير ، والحقيقة هى أن هذه العملية كثيرة الحدوث جدا ، وخصوصا فى الطبقات الوسطى والغنية التى يستطيع أفرادها الالتجاء إلى الأطباء لإجراء هذه العملية .

وأخيراً يأتى تحديد النسل . وهو وإن كان له بعض الأثر فى نقص نسبة المواليد إلا أنه لا يكفى وحده لتفسير هذا النقص الكبير

فى العصر الحديث إذا قورن بالعصور السابقة .

على أن ضبط النسل من الوجهة العملية من الأمور التى لاتكاد تضبط . لأن أكثر العقاقير المستعملة فى هـذه العملية من الأنواع التجارية البحتة التى لم يراع فى صنعها الدقة الطبية بل قصد بها مجرد الربح . ويستطيع كل من مارس هذا الأمر من المتزوجين أن يذكر أن الحمل قد حدث رغم استعمالها . وقد قرر الثقاة فى هذا الموضوع أن استعمال وسيلة واحدة لايأتى بالنتيجة المطلوبة . وأنه ، لكى يكون منع الحمل مؤكدا ، يجب أن يحتاط الرجل من جانبه وتحتاط المرأة من جانبها . وفى هذا إرهاق كبير وإقلال من المتعة الجنسية قلما يرضاه لنفسه أحد الزوجين أو الآخر . وإذا قبله مرة رفضه مرات . فإذا علمنا أن جرثومة واحدة تتخطى الأسوار وتمر بسلام تكفى للتلقيح تبينا أن الكلام عن تحديد النسل شىء وتطبيقه شىء آخر .

ومن الطريف فى هذا الموضوع أن إحدى الهيئات الانجليزية أجرت استفتاء بين المتزوجين عن عدد اطفالهم . فتلقت ٣١٦ إجابة منها ٢٤٢ من أزواج يستعملون وسائل تحديد النسل ، ٧٤ ممن لايستعملون فكان متوسط عدد أطفال الطائفة الأولى ٢,٧ والثانية ٢,٨٨ .

وقد أجرت هيئة اخرى استفتاء مماثلا وتلقت ٤٧٧ إجابة منها ٢٨٧ من أسر تحدد النسل . فكان متوسط عدد اطفالها ٢,٤ . أما الأسر الأخرى فكان المتوسط فيها ١,٦ .

وقد أسفر استفتاء ثالث عن نتيجة مماثلة للاستفتاء الثانى إذ كان ٣ ½ ⅛ لمن يضبطون نسلهم ، ٢ ½ لمن لايتحكمون فيه .

من هذه الحقائق كلها نستنتج أن الضجة التى يثيرها حول تحديد النسل محبذوه والمعارضون فيه هى ضجة كلامية ليس لها فى عالم الواقع إلا أثر ضعيف .

وقصارى القول أن تحديد النسل مسألة شخصية بحتة ، ومن الأمور التى يجب أن يترك البت فيها للزوج وزوجته . فإذا رأيا أن ظروفهما الاقتصادية والاجتماعية لاتتفق مع كثرة الذرية فليحاولا تحديد النسل اذا استطاعا إلى ذلك سبيلا ، وعليهما ان يتخيرا من الوسائل تلك التى لاتعود عليهما بالضرر — أما تدخل الدولة أو رجال الدين فما هو إلا صرخة فى واد ونفخة فى رماد .

***

## نقص نسبة المواليد وعلاقته بالزيادة المطلقة للسكان

لاتتوقف الزيادة المطلقة للسكان على زيادة نسبة المواليد فقط بل على تناقص نسبة الوفيات . إذ من الجائز أن تكون نسبة المواليد مرتفعة فى الوقت الذى تكون نسبة الوفيات أكثر ارتفاعا . وفى هذه الحالة يقل عدد السكان . فالمهم إذن هو عدد من يبقون على قيد الحياة ، أو الفرق بين نسبتى المواليد والوفيات .

وقد كانت نسبة المواليد فى دول أوروبا الغربية فى سنة ١٨٧٣

تتراوح بين ٢٥ ، ٣٨ فى الألف فهبطت فى سنة ١٩٣٣ إلى ما بين ١٤ ، ٢٠ . وفى نفس المدة هبطت نسبة الوفيات من ١٨ — ٢٨ الى ١٠ — ١٦ .

وهذه الظاهرة المزدوجة ليس لها نظير فى التاريخ . وإن كانت تدل على شىء فانما تدل على أنها مظهر من المظاهر المتعددة للمدنية الغربية الحديثة .

أما نقص نسبة المواليد فقد بينا أنها ترجع فى المحل الأول إلى ضعف درجة الخصوبة فى النساء والرجال والى شيوع العقم بينهم . ثم الى تأخير الزواج وذيوع العزوبة ويجىء بعد ذلك عامل الاجهاض وضبط النسل . ولعل القارىء قد تبين مدى ارتباط هذه العوامل كلها بنوع الحياة العصرية التى يعيشها الآن سكان أوروبا وأمريكا . ووضح له أنه كلما أمعن الانسان فى الحياة الصناعية المتكلفة ضعفت قدرته على النسل .

وأما نقص نسبة الوفيات وبخاصة وفيات الأطفال ، فهو كذلك من نتائج الرقى الاجتماعى والنهوض الفكرى — فانتشار الثقافة الصحية بين الناس ، وتقدم وسائل مكافحة الأمراض المختلفة وقيام الهيئات المتعددة لمساعدة الأسرة على تأدية وظيفتها — كل هذه قد صاحبت المدنية الحديثة فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وأدت ولا تزال تؤدى ، الى نقص الوفيات وعلى الأخص بين الأطفال .

وهذا النقص المستمر فى نسبة الوفيات رغم اقترانه بما يماثله فى نسبة المواليد كان من العوامل الهامة فى زيادة عدد سكان أوروبا من حوالى ١٧٥ مليونا من سنة ١٨٠٠ إلى مايقرب من ٤٥٢ مليونا فى سنة ١٩١٤ .

* * *

وفى مصر كان متوسط نسبة المواليد ٤٣,٤ فى كل ألف من السكان قبيل نشوب الحرب الحالية أى أكثر من ضعف النسبة فى دول أوروبا — كذلك كانت نسبة الوفيات فيما بين سنة ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ ٢٧,١ فى كل ألف من السكان فى المتوسط أى ضعف النسبة فى أوروبا . وهذا يفسر لنا الزيادة المستمرة فى عدد سكان مصر بمعدل يفوق بكثير نظراءه فى دول أوروبا وامريكا . ويعزز ما ذهبنا اليه من أن الحياة بين أحضان الطبيعة تعمل على زيادة الخصوبة الجنسية فى الرجل والمراة .

والواقع أن ارتفاع نسبة المواليد فى مصر ترجع فى المحل الأول الى خصوبة المرأة المصرية التى تساوى مرتين ونصف مثيلتها عند المرأة الانجليزية والفرنسية . ومرتين عند المرأة الهندية ومرة ونصف عند اليونانية - كما أن متوسط سن الزواج فى مصر يقع بالنسبة للرجل والمرأة فى اكثر فترات العمر خصوبة بين العشرين والخامسة والعشرين، ومعنى هذا أن المرأة المصرية تتمتع بالقدرة التناسلية فترة طويلة . أى

من سن العشرين الى الخمسين تقريبا . ويمكن أن نضيف الى هذه العوامل أن المصريين وأكثرهم من أهل الريف لا يميلون إلى العزوبة . كما أن عدد الأناث لا يكاد يزيد كثيرا عن عدد الذكور . ولذا فقلما نجد فتاة بلغت الثلاثين دون زواج ، بعكس الحال فى كثير من دول أوروبا حيث يكثر عدد العوانس .

ويجب ألا ننسى كذلك أثر تعدد الزوجات فى رفع نسبة المواليد عندنا . ونحن نقصد بتعدد الزوجات هنا ان كثيرين من المصريين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوجة واحدة فى وقت واحد لمجرد الرغبة فى ذلك . كما ان العادة قد جرت أن الرجل إذا وجد زوجه عاقرا فانه فى أكثر الأحيان يطلقها ويتزوج من أخرى ، أو يتخذ زوجة ثانية الى جانب زوجته الأولى ، كى ينجب اطفالا . وعلى هذا فقلما نجد أسرة دون ذرية .

أما تحديد النسل فإلى جانب أنه أقل العوامل أثرا فى خفض نسبة المواليد كما قدمنا ، فانه نادر الحدوث فى الريف المصرى حيث يعيش أكثر سكان القطر . وأن كان له وجود فبين الطبقات الثرية والمتوسطة من سكان المدن . وفى هذه الحالة تكون النسبة ضئيلة جدا لا تؤثر فى المجموع .

وارتفاع نسبة الوفيات فى مصر وعلى وجه خاص بين الأطفال الرضع حيث تبلغ ١٦٣ فى الألف أى أكثر من ثلاثة أضعاف النسبة

فى انجلترا وكثير من دول أوروبا ، فإنها ترجع إلى سوء الأحوال الصحية بين الطبقات الفقيرة فى القرى والمدن . اذ ليس هناك أدنى شك فى أن أكثر المصريين يعيشون فى ظروف اجتماعية واقتصادية بعيدة كل البعد عن مقومات الصحة . فالفقر والجهل قد تكاتفا فى مصر على إحداث أخطر الأضرار بالصحة العامة . وبذلك تفقد الأمة المصرية كل سنة عددا كبيرا من أطفالها . وهذا أبشع نوع من الاسراف إذ يتناول التبذير فى مادة الحياة نفسها .

ومعالجة هذه الحال تتطلب من الحكومة والشعب بذل أكبر الجهود ومهما صرف من مال فى سبيل ذلك فإنه قليل إذا قورن بالنتائج الطيبة التى تحصل عليها الأمة من الاحتفاظ بحيوية أبنائها .

* * *

## تحديد النسل من الوجهة العملية

لما كان المجال لا يتسع للكلام عن هذه الناحية فإنا ننصح القارىء بقراءة أحد الكتب الآتية ، وهى قد عالجت الموضوع علاجا مسهبا:

1. Birth Control Methods. By Dr. Norman Haire.
2. The Truth abovt Birth Control. By George Ryley Scott.
3. Wise Wedlock. By Dr. Courtenay Beale.

* * *

# المشكلة الثالثـــة

## تفاقل الأسرة الحديثة

بينا فى الباب الأول من هـذا الكتاب أن الأسرة فى العصور القديمة والوسطى كانت وحدة اجتماعية متماسكة الأجزاء يسيطر عليها الأب وله على أعضائها واجب الطاعة المطلقـــة . وذكرنا كذلك أن الأسرة كانت هى المجتمع الصغير الذى ينتظم حياة الأفراد من الناحية الدينية والاقتصادية والثقافية . أو بعبارة اخرى كان أفراد الأسرة يلتمسون الرزق واللعب وشتى نواحى النشاط داخل نطاقها ـ ولذلك كان ارتباط اعضاء الأسرة بعضهم ببعض قويا تدعمـــه الظروف الاقتصادية والتقاليد والعرف .

اما الأسرة الحديثة فرغم ما كسبته من مزايا وما أصابته من تقدم وتحرر فقد تسربت اليها عوامل التفكك والتداعى . وهذه ناحية من نواحى النقص تستلفت النظر وتدعو الى الأسف .

وأهم مظاهر هذا التفكك والتداعى فى بناء الأسرة الحديثة شيوع الطلاق فى المجتمعات الأوروبية والمجتمعات التى اخـــذت بأسباب المدنية الغربية . . . صحيح إنه فى كثير من الجماعات المتأخرة كان العرف يخول للرجل أن يطلق امرأته لأسباب معينة كاشتغالها بأعمال

السحر أو عدم قدرتها على الطهى دون أن يكون للمرأة نفس الحق. وصحيح كذلك أن الرجل من العبرانيين القدماء كان له أن يطلق امرأة ويعطيها كتاب الطلاق ـ وبالمثل كانت هذه العادة سائدة فى روما القديمة أبان عصر الجمهورية ـ غير أن المجتمعات الأوروبية التى اعتنقت النصرانية قد نبذت هذه العادة القديمة ، وكان لها من النواهى الدينية والروابط الاجتماعية والاقتصادية ما يحصر الطلاق عندها فى أضيق نطاق ، إن لم يحرمه تحريما تاما . ولهذا لم تكن هذه الظاهرة لتثير مشكلة اجتماعية إلا فى العصر الحديث .

ففى انجلترا بلغ عدد حالات الطلاق التى رخص بها فى سنة ١٩٢٨ ٤٠١٨ . وهذا الرقم الذى زاد كثيرا عن السنوات السابقة قد هال القوم إلى درجة أن كثيرا من أمهات الجرائد قد أشارت اليه بأنه فضيحة قومية . وفى نفس السنة كان عدد حالات الطلاق فى الولايات المتحدة ١٩٥,٩٣٩ ـ وفى سنة ١٩٣٢ كانت نسبة الطلاق فى النرويج ٣٢,٨ فى كل مائة الف من السكان ، وفى السويد ٣٨,٥ ، وفى بلجيكا ٣٠,٨ . . . اما فى المانيا فقد كانت فى نفس السنة ٦٤,٨ ، وفى فرنسا ٥١,٨ ، وفى النمسا ٩٤ ، وفى سويسرا ٧٤,١ .

فاذا أحصينا نسبة الطلاق فى انجلترا وفى الولايات المتحدة الى عدد السكان وجدناها فى الأولى حوالى ١٠,٥ وفى الثانية حوالى ١٦١ لكل مائة الف . أى أن انجلترا تعتبر أقل دول أوروبا طلاقا

بينما تعتبر الولايات المتحدة أكثر دول العالم الذى اصطبغ بالمدنية الغربية من هذه الناحية . وتنافسها روسيا السوفيتية فى هذا المضمار فى بعض السنوات .

اما فى مصر فقد كانت نسبة الطلاق فى المحافظات والمديريات فى سنة ١٩٣٤ — ١٢,٤ لكل ألف من السكان او ١٢٤٠ فى كل مائة الف وعندما عمم الاحصاء فى سنة ١٩٣٥ بحيث شمل كل القطر هبطت نسبة الطلاق الى ٦,٩ فى الألف أو ٦٩٠ فى كل مائة الف ـ وعلى هذا الوضع تكون نسبة الطلاق فى مصر اكثر من أربع مرات مثيلتها فى الولايات المتحدة التى تعتبر على رأس القائمة بين أمم العالم الممدن . .

* * *

ولقد اختلفت وجهات نظر الدول وقوانينها نحو الطلاق . ففى إيطاليا وأيرلندا وسائر العالم الكاثوليكى يحرم الطلاق بتاتا ولو أنهم فى بعض الظروف يحكمون ببطلان عقد الزواج إذا اتضح أن أحد الشريكين قد خدع الآخر كأن تكون الفتاة غير عذراء او يكون الزوج فاقدا للحاسة الجنسية .

وفى أكثر دول أوروبا والامبراطورية البريطانية يعتبرون عقد الزواج غير قابل للحل . غير أنهم يرخصون بالطلاق إذا طلبه أحد الشريكين وأثبت أن الآخر قد ارتكب نحوه جرائم معينة . وفى النرويج

والسويد والدانيمرك واليابان والصين — يعتبر عقد الزواج كأى تعاقد آخر يمكن فسخه إذا وافق الطرفان على ذلك . وفى روسيا السوفيتية يرخص بالطلاق إذا طلبه أحد الشريكين .

أما فى الدول التى تدين بالإسلام فقد أباحت الشريعة الطلاق ولكنها بغضت فيه لما قد يترتب عليه من الجفاء الذى نهى الدين عنه على أن الشريعة رأت إجراء التحكيم قبل الطلاق ليتروى كل من الزوجين فيه قبل الإقدام عليه . فقد جاء فى القرآن الكريم : —

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها . إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا » .

وعدد الطلاق ثلاث طلقات ولا بد أن يكن متفرقات . فقد جاء فى المرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ أن الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة لايقع إلا واحدة . ولا يقع طلاق الزوج إلا إذا كان بالغا عاقلا . ويقع الطلاق باللفظ وبالكتابة وبالإشارة من الأخرس إذا كانت تدل على قصد الطلاق .

* * *

والآن نعرض للأسباب التى أدت إلى شيوع الطلاق وما يتبعه من انحلال الأسرة فى الدول التى اقتبست المدنية الغربية بعد أن كانت هذه الظاهرة فى حكم العدم تقريبا فى العصور الوسطى .

هناك عاملان هامان وصلا بالأسرة إلى هذا الوضع . أما الأول

فهو أن الأسرة فى العصور التى سبقت الثورة الصناعية كانت تواجه العالم كوحدة اقتصادية يعتمد كل عضو من أعضائها على سائر أفراد الأسرة فى حياته ورفاهيته . وكانت المرأة على الأخص تعلم أن الرجل قوام عليها وتعتقد أن كيانها الاقتصادى والاجتماعى وقف على إرادته، وأنه ليس لها إلا أن تختار بين الزواج أو الترهب فى أحد الأديرة لهذا كانت تخضع لزوجها كل الخضوع وتحاول قدر الطاقة أن تنسى إساءته أو تتناساها . ولا تفكر فى التخلص من الزواج سواء كانت سعيدة أو بائسة . إذ لم يكن أمامها غير الزواج سبيلا إلى الاستقرار المادى . أما فى العصر الحديث فقد أصبحت المرأة قادرة على الكسب خارج نطاق الأسرة وأصبح لها وجود اقتصادى معترف به . وبهذا تلاشى عامل الضرورة الاقتصادية الذى كان يضطرها إلى الخضوع لزوجها حتى فى أسوأ الظروف وأقساها عليها . فإذا شعرت المرأة بأن زوجها يشتط فى معاملته لها ثارت عليه وحاولت التخلص منه واتجهت إلى ميدان العمل تبغى فيه رزقا . ولقد صحب هذا التحرر الاقتصادى تحرر اجتماعى لايقل عنه أهمية . وهو أن المجتمع لم يعد ينظر إلى هذا التحول فى سلوك المرأة نظرة السخط السابقة بل أصبح يعطف عليها إلى حد كبير ويقدر الظروف التى تدفعها إلى التخلص من زواج يجر عليها الشقاء والتعس .

أما العامل الثانى فهو أن الزواج قد طفر فى الدول التى شملتها

المدنية الغربية من حالة يفرض فيها الزواج على الرجل والمرأة فرضا إلى حالة ترك فيها الحبل على الغارب ، وأصبح فيها الزواج فصلا ختاميا من رواية غرامية عنيفة . والغرام من خصائصه أن يجرف الشاب والفتاة فى تياره ويغمرهما غمرا . فيسارعا إلى الزواج دون تبصر ودون تقدير لتلك العوامل التى يجب توفرها لتحقيق السعادة الزوجية . فإذا ما أفاقا من نشوة الحب وتجسمت أمامهما حقائق الحياة ، وتبينا أن أسس زواجهما كانت واهية سارعا إلى الخروج من المأزق لايردعهما رادع اجتماعى ، ولا تقف فى سبيلهما ضرورة اقتصادية ملحة .

وهناك عامل ثالث قد يكون ذا أثر فى شيوع الطلاق فى الأمم المسيحية وهو أن القرن السادس عشر قد شهد ظهور مذاهب مسيحية غير المذهب الكاثوليكى الذى كان سائدا إلى ذلك الحين فى أوروبا . وقد قام أئمة هذه المذاهب مثل مارتن لوثر وكلفن بتفسير آيات الانجيل تفسيراً مغايراً لتفسير الكنيسة الكاثوليكية . ومن أهم نتائج هذا التفسير الجديد أنه أوجد فرجة للطلاق لم يكن لها وجود من قبل . فالكنيسة الكاثوليكية كانت ولا تزال تحرم الطلاق بتاتا استنادا إلى الآية المعروفة :—

« فى البدء خلق الله ذكرا وأنثى . وماجمعه الله لايفرقه الانسان » فجاءت المذاهب الجديدة بمسوغات تبرر الطلاق فى بعض الظروف

كارتكاب الزوجة لجريمة الزنا مستندة إلى الآية القائلة :—

« لاتطلق المرأة إلا لعلة الزنا . ومن تزوج بمطلقة فقد زنا بها » أو كأن تكون المرأة عقيما . وفى هذا استشهدوا بقول المسيح عليه السلام : « الشجرة التى لاتثمر تقطع وتطرح فى النار » .

وعلى هذا ضعف سلطان الكنيسة الكاثوليكية وأصبحت المجتمعات التى اعتنقت المذاهب الجديدة كالبروتستانتية فى حل من الوازع الدينى إلى حد كبير .

هذه الأسباب الثلاثة مجتمعة تفسر إلى حد كبير اقتران المدنية الغربية فى العصر الحديث بكثرة حوادث الطلاق وتفكك الأسرة ، حتى قال بعض المتطرفين فى التشاؤم إن الأسرة فى طريقها إلى الانحلال السريع . وهم يقررون تعزيزاً لرأيهم ، أن أفراد الأسرة الآن أصبحوا يلتمسون مسراتهم ونشاطهم الاجتماعى خارج نطاقها ، بالانضمام إلى عضوية الهيئات المختلفة من رياضية وثقافية ومهنية وغيرها من شتى الهيئات التى يستطيع المرء أن يقضى فى رحابها أكثر أوقات فراغه وبذلك يضعف مركز الأسرة .

غير أننا نرى أن هذه المبالغة فى التشاؤم ليس لها مايبررها لأن الأسرة هى النظام الوحيد الذى يستطيع أن يحقق للانسان رغباته الجنسية ويروى ظمأه نحو الذرية وتعطشه إلى الحياة الهادئة المستقرة ، ومهما كان من تعدد الهيئات والنقابات التى يرتبط بها الفرد فإنها تخدم

أغراضا اجتماعية أو اقتصادية معينة لاتتعارض مع وظائف الأسرة وأغراضها ، بل على النقيض قد تساعدها على تأدية هذه الأغراض .

ولعل أهم مايستوقف النظر فى موضوع الطلاق فى العالم الغربى ذلك التفاوت الكبير بين الحالة فى انجلترا والولايات المتحدة ، لأن النسبة فى الدولة الأولى تافهة جدا إذا قيست بالنسبة فى الثانية . وتعليل ذلك فى نظرنا أن الولايات المتحدة دولة مكونة من أجناس متعددة يختلف بعضها عن البعض فى الميول والعادات إلى حد كبير ، مما يدعو إلى قلة الانسجام بين الزوجين إذا كان كل منهما ينتمى فى الأصل إلى جنس مختلف عن الآخر كأن يكون أحدهما من أصل لاتينى والآخر من أصل سكسونى . هذا ويجب ألا ننسى أن الأمة الانجليزية أمة محافظة تحترم تقاليدها القديمة ، وأنها لم تطفر نحو المدنية الغربية طفرة الولايات المتحدة التى يميل شعبها إلى التجديد المستمر وينزع إلى السرعة فى هذا التجديد . وهو ، تمشيا مع هذه النزعة ، قد اكتسح التقاليد الموروثة فى شئون الزواج والطلاق وتكوين الأسرة وأصبح أفراده يقيمون الوزن لعاطفة الغرام كأهم مايجب أن يشاد عليه بناء الأسرة . وقد رأينا أن هذه العاطفة ، وإن كانت من مستلزمات الزواج ، إلا أنها ليست كل شىء فيه . بل قل إنها عاطفة خادعة إلى مدى كبير ، والاعتماد عليها وحدها هو ارتكاز على أسس واهية .

* * *

نعود الآن إلى مشكلة الطلاق فى مصر وعلاقته بتفكك الأسرة فنقول إن مصر تكاد تخلو من تلك العوامل التى أدت إلى زيادة أحوال الطلاق فى أوروبا . ومع هذا فنسبة الطلاق تبلغ أضعاف النسبة فى أوروبا وأمريكا كما ذكرنا من قبل وهذا يرجع فيما نرى إلى إساءة الشعب لفهم الشريعة الإسلامية من ناحية وإلى تراخى الدولة فى تطبيق نصوص هذه الشريعة من ناحية أخرى .

فالشريعة الإسلامية قد أباحت الطلاق إذا كان لضرورة قصوى تستلزم ذلك كحدوث تنافر بين الزوج وزوجته يستعصى عليهما حله وتستحيل معه الحياة الزوجية . أو كأن تكون المرأة عقيما لا تلد والرجل فقيرا ليست له القدرة على الجمع بين زوجتين . أو يكون الرجل هو العقيم فإن لم يفارق المرأة لتتزوج غيره حرمت من النسل . على أن الشريعة نفسها قد بغضت فى الطلاق . إذ جاء فى الحديث الشريف « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » . فإذا كان الطلاق يتضمن أذى للزوجة بالباطل كأن يقع عليها من غير جناية من جانبها ومن غير ضرورة ملحة من جانب الرجل تحمل على ذلك كان مخالفا للانصاف ومستوجبا للذم . وقد جاء فى القرآن الكريم . « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا . » وهذا نهى الله سبحانه وتعالى إلى الرجال ألا يقدموا على الطلاق إلا فى أشد الحالات وأقصى الضرورات .

غير أن المصرى العادى الذى لم يدرس نصوص الشريعة الاسلامية

ويجهل المعانى الحكيمة التى ترمى إليها يعتقد أن الطلاق أمر من الأمور العادية التى يستطيع أن يعملها بكل بساطة وراحة بال دون أن يكسر بذلك قانوناً وضعياً أو إلهياً ، لأنه واثق كل الثقة أن الشريعة تخول له ذلك متى شاء وكيفما شاء . وهذا جد خطأ كما يتضح من الآيات التى أوردناها قبلا .

هذا الاعتقاد الخاطىء من جانب الرجال فى مصر هو الذى يؤدى إلى شيوع ظاهرة الطلاق شيوعا مخيفاً شديد الخطر على الكيان الاجتماعى والأسرة . لأن الطلاق قد قصد به شىء واحد فقط هو تجنب ماهو أعظم منه شراً . فإذا وقع لأسباب تافهة وهذا هو مايحدث فى أكثر الحالات ، كان تقويضاً لأركان الأسرة وتشريداً للأطفال والأمهات مهما كان الضمان المالى الذى تحكم به المحاكم الشرعية . لأن رعاية الأب وهى التى يفقدها الأطفال فى حالة الطلاق ، هى أعظم مقوم لأخلاقهم وأهم عامل من عوامل التربية الصحيحة . فإذا أضيف إلى ذلك أن الأم التى تطلق تتزوج من رجل آخر فى أكثر الحالات وبذلك تقل رعايتها لأطفالها السابقين ويضعف إشرافها عليهم ، تبينا أن الطلاق واليتم قريبان من بعضهما لا يكاد يتميز أحدهما عن الآخر.

لهذا نرى أن علاج مشكلة الطفولة المشردة يجب أن يكون بتطبيق نصوص الشريعة الاسلامية تطبيقاً صحيحاً على كل حالات الطلاق،

وبذلك نستأصل الداء من أساسه وننقذ المجتمع المصرى من ذلك

الخطر الهائل الذى يتهدده ، ألا وهو تداعى بناء الأسرة كنتيجة حتمية لانتشار الطلاق .

وهناك مسألة أخرى يرجع إليها إلى حد ما تفكك كثير من الأسر المصرية ، وهى الجهل بحكمة الشريعة الاسلامية فى موضوع تعدد الزوجات . فالقصد من إباحة تعدد الزوجات فى نظر الاسلام هو إيجاد فرجة للرجل الذى تصاب زوجته بمرض يجعلها غير قادرة على النسل دون أن يضطره إلى طلاقها . كما قصد به كذلك حل مشكلة زيادة النساء على الرجال إذا كان لها وجود فى المجتمع . غير أن الشريعة الاسلامية قد احتاطت للأمر واشترطت توافر بعض الشروط فيمن يجوز له التعدد وهو العدل والقدرة والكفاية . وهى شروط تكاد تجعل تعدد الزوجات فى حيز الممنوع . فقد جاء فى القرآن الكريم . « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » أى فاقتصروا على واحدة من الزوجات إن خشيتم الظلم دون العدل بينهن . وجاء فى الحديث الشريف « من كان له امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل »

فأهداف الشريعة الإسلامية من إباحة تعدد الزوجات أهداف سامية قد جعل الوصول إليها شاقاً يتطلب من الرجل الحيطة والحذر . غير أن الواقع فى مصر غير ذلك . فالمشاهد أن الرجل المتزوج بواحدة إذا أعجب بأخرى لجمالها أو مالها أو أى اعتبار آخر فيها بادر الى الزواج بها . وهذه الظاهرة سائدة بين الطبقات العليا والدنيا على السواء

فإذا عرفنا أنه من العسير على الرجل الغنى أن يعدل بين زوجاته ، ألا ترى أن هذا العدل يستعصى على الفقير ! . وهو فى هذا الوضع لايحقق شرط الدين فى وجوب العدل ؟!

والنتيجة المباشرة لتعدد الزوجات وبخاصة بين الطبقات الفقيرة فى مصر أن الرجل لايستطيع أن يسكن كل زوجة فى منزل منفرد ، بل يحشرهن حشراً فى حجرة أو حجرتين وكأنه بذلك قد حشر نفسه معهن فى جحيم مستعر يتبادل أهل السب والشتم والضرب أناء الليل وأطراف النهار . ولا جدال فى أن هذا الجو المكفهر لا تستقيم فيه حياة الأسرة ولا يصلح لتنشئة الأطفال .

وليس الحال بين الطبقات الغنية بأصلح من هذا بكثير ، على الرغم من استقلال كل زوجة فى منزل خاص بها ، لأن الرجل لايستطيع أن يشطر نفسه شطرين بحيث يستطيع أن يعدل فى رعاية المنزلين . ولذا ينتهى به الأمر فى أكثر الأحوال إلى أن يميل نحو زوجة ويمل الأخرى فيهملها أو يطلقها . وكلا الأمرين كارثة اجتماعية .

لهذا نرى وجوب أخذ الدولة مثل هذه المسائل بتلك الشدة والدقة التى راعاهما الدين الاسلامى ، الذى لم يترك للناس سبيلا إلى العبث بل كان فى نصوصه قوياً قويماً حازماً كل الحزم .

هذه هى الناحية الإيجابية من الاصلاح الاجتماعى لشئون الأسرة أما الناحية السلبية فهى وجوب تنشئة الجيل الجديد فى المدارس المختلفة

تنشئة دينية صحيحة . وذلك بأن يكون أدب الإسلام موضع دراسة حقيقية فى كل مراحل التعليم ، وبخاصة تلك الناحية من الأدب التى تتناول شئون الأسرة كالقصد من الزواج وحسن تربية الأبناء ومقومات الأسرة ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى يعتبر فهمها أساسا لكل بناء اجتماعى . وبذلك يشب الأطفال على الفضائل الاجتماعية تحدوهم مثل عليا بالغة مرتبة السمو .

كذلك يجب أن تشحذ الدولة سلاح الصحافة والراديو ومنابر المساجد لتنوير الرأى العام وتوجيهه نحو الغايات النبيلة التى قصد إليها الدين الإسلامى من إباحة الطلاق وتعدد الزوجات . كما يجب تشجيع شتى الهيئات الاجتماعية التى تتألف لهذا الغرض .

بهذا كله نستطيع أن نوقف تيار ذلك السيل الجارف الذى يهدد المجتمع المصرى بالانهيار .

***

# المشكلة الرابعة

## المركز الاقتصادى للمرأة فى المجتمع

قبل أن يخرج الإنسان إلى نطاق المدنية ، كان هناك تقسيم فى العمل بين الرجال والنساء ، فكل فرد من هاتين الطائفتين يقوم بعمل يكاد يكون مماثلا لعمل زميله من أفراد طائفته . ففى الجماعات التى كانت تشتغل بالصيد البرى مثلا كان الرجال يقومون بالصيد ، ولا يكاد يختلف فى ذلك رجل عن آخر . أما النساء فكان عليهن جمع الثمار والعناية بالأطفال وتعهد شئون المنزل . وعلى هذا كانت أعمال كل طائفة على حدة متجانسة ، وتختلف فى طبيعتها عن أعمال الطائفة الأخرى. وهذا هو العصر الأول من عصور تقسيم العمل .

أما العصر الثانى فقد بدأ بظهور المدنية ، وفيه ظل النساء يباشرن أعمال المنزل لا تشذ فى ذلك واحدة عن الأخرى ، بينما بدأ الرجال يتخصصون فى أعمال مختلفة بعضها عن بعض . وكل يعتمد فى حياته على إنتاج باقى أفراد المجتمع . وقد زاد هذا التخصص بين الرجال بتقدم المدنية حتى أصبحت هذه الظاهرة الآن من أكبر مميزات المدنية الصناعية ، حيث يستلزم صنع شىء واحد عشرات العمليات المختلفة التى يقوم ببعضها العمال ، وتصنع الآلات البعض الآخر .

غير أن التخصص لم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى النساء. فبعد

أن كان عمل المرأة هو إدارة المنزل فقط ، أصبح الآن يشمل وجوها مختلفة من النشاط الاقتصادى خارج نطاق المنزل . والعالم لا يزال بعيدا جدا عن تعميم هذه الظاهرة بين النساء ، إلا أن الإحصاءات تدل على أن ثلث عدد النساء فوق سن الرابعة عشرة قد تخصص الآن فى حرف مختلفة ، وهذا يعنى دخول العالم فى عصر ثالث من عصور تقسيم العمل فيه تتنوع حرف النساء كما تنوعت حرف الرجال من قبل .

ويجب ألا يظن أن ظاهرة تنوع الحرف شملت كل الرجال أولا ثم بدأ دور النساء . فالواقع أن قضية اشتغال المرأة خارج الدار قديمة يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى . ففى ذلك الوقت كان شيوع الرهبنة بين الرجال وكثرة الحروب من العوامل التى أدت إلى زيادة النساء عن عدد الرجال . ففى مدينة نورنبرج من أعمال ألمانيا زاد عدد الأناث البالغات عن عدد الذكور البالغين بمقدار ٢٠٧ فى سنة ١٤٤٩ . كذلك أجرى فى مدينة بال سنة ١٤٥٤ إحصاء أسفر عن زيادة النساء عن الرجال بمقدار ٢٤٦ . لهذا كان أكثر النساء اللاتى حرمن الزواج يلجأن إلى الأديرة والملاجىء ، أو يلتحقن بخدمة أمراء الاقطاع . ثم بدأ النساء يعملن فى التجارة ، فساعدت الزوجة زوجها والابنة أباها فى عمله ثم استقل كثيرات منهن بالعمل . وبدأ كفاح شديد بين النساء ونقابات أصحاب الحرف من الرجال انتهى بهزيمة النساء . ولم يكد القرن السابع عشر ينتهى حتى أبعد النساء عن النقابات وحرم عليهن الاشتراك فى عضويتها .

غير أن الثورة الصناعية التى بدأت فى إنجلترا فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وفى فرنسا فى الربع الأول من القرن التاسع عشر والتى انتشرت من دولة الى دولة ومن قارة الى أخرى كاشتعال النار فى الهشيم ، هذه الثورة الصناعية قد حتمت دخول النساء بل والأطفال فى مضمار الصناعة . وكانت المرأة فى أول هذا العهد تصنع المنسوجات على أنوال يدوية فى منزلها ثم تبيعها الى وسطاء يبيعونها بدورهم الى المستهلكين . ثم أغراها الربح الوفير باقتحام ميدان الصناعة داخل المصانع نفسها ، حيث حلت الآلات مشكلة ضعفها الجثمانى فأصبح فى مقدورها أن تباشر أكثر العمليات الصناعية التى يباشرها الرجل . ففى سنة ١٧٨٨ كانت مصانع الغزل الانجليزية والاسكتلندية تستخدم وحدها ٥٩٠٠٠ امرأة ، ٤٨٠٠٠ طفل ، وفى سنة ١٨٦٤ كان فى باريس ٣٠٠٠ مدرسة موسيقى ، ومن سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٦١ زاد عدد المعلمات فى بروسيا من ٧٠٥ الى ٧٣٠٦ ، وفى إحصاء سنة ١٨٩٥ بلغ عدد النساء المشتغلات بالحرف المختلفة فى ألمانيا ٦,٥٧٨,٣٥٦ أى مايقرب من ثلث عدد نساء الأمة . . . فإذا ماحل القرن العشرين سارت المرأة بخطوات حثيثة جداً فى طريق التنوع المهنى حتى لانكاد نجد حرفة تخلو من النساء . بل أن هناك حرفا يربى فيها عدد النساء على عدد الرجال . وليس أدل على ذلك من المقدرة البالغة المدهشة التى تساهم بها المرأة الأوروبية فى الحرب الحالية ، فهى تؤدى أعمالا

شديدة الخطورة ترهق الأجسام والأعصاب ، وتتطلب قلوبا جريئة ومهارة عظيمة وتضحية هائلة بالنفس والنفيس .

***

## مستقبل اشتغال المرأة خارج الدار

يعتقد الكثيرون أن تعميم اشتغال المرأة خارج الدار وهم من نسيج الخيال لا يمكن أن يتحقق . بل جاوزوا هذا إلى حد اعتباره مرضا من الأمراض الاجتماعية التى يجب القضاء عليها ، لا مظهرا من مظاهر التقدم يحسن تشجيعه . ونحن ، إذ نحاول التكهن بمستقبل المرأة فى هذا المضمار ، علينا أن نبحث بعض الاعتبارات الهامة التى تلقى ضوءا كافيا على هذه المشكلة .

فى المحل الأول من هذه الاعتبارات يجب أن نقرر أن التقدم الاجتماعى والاقتصادى الذى شمل الحياة الانسانية فى عصورها المختلفة قد سار وفق تلك القوانين الطبيعية التى تحكمت فى تطور الحياة نفسها ، فالحياة بدأت فى صورة خلية واحدة ثم أخذت ترتقى وتتعقد فكانت الأسماك ثم الحيوانات المائية البرية ثم الزواحف ثم الحيوانات الثديية ، وفى خاتمة المطاف جاء الانسان . وفى كل مرحلة من هذه المراحل كان الترقى يصحبه تنوع فى وظائف أعضاء الجسم وفى زيادة اعتماد كل عضو على سائر الأعضاء ، حتى أصبح جسم الانسان مثلا يعتبر أكثر تعقيدا

وأكثر أجهزة من جسم الدودة أو السمكة . هذا التنوع مع الانسجام والاتساق هو القانون الطبيعى الذى تدرجت بمقتضاه الحياة على الارض، وهو القانون الذى اتبعه الترقى الاجتماعى والاقتصادى للجماعات الانسانية، فالجماعة البدائية كانت بسيطة قليلة العدد يقوم الفرد منها بكل الأعمال التى يتطلبها وجوده ، فهو يصيد ويزرع ويبنى ويغزل . وكلما تدرج المجتمع من جماعات متفرقة الى قبائل كبيرة العدد ثم الى أمم عظيمة ، زاد تخصص الانسان وتنوعت حرفه ، وعظم اعتماده على انتاج غيره فى نفس الوقت — فإذا كان هذا القانون الطبيعى قانونا جبارا يتحتم على الانسان اتباعه — وقد خضع له بالفعل — فهل هناك مناص من تنوع حرف النساء بحيث يشمل كل بنات حواء ، كما تنوعت حرف الرجال وشملت كل أفراد الجنس النشيط ! !

ونحن نعتقد أن المرأة تتكسب ، لأن ظروف الحياة وأوضاع المجتمع تجبرها على ذلك ، لا لأنها تميل بطبيعتها إلى نبذ المنزل وأعماله وهى لذلك تتوق إلى الحياة الزوجية الهادئة التى ترجعها إلى مهنتها الطبيعية ووظيفتها الأولى ، ألا وهى رعاية منزلها وأبنائها . ولا تلبث أن تستقر فى منزلها عند ما تواتيها الظروف . غير أن الظروف الاجتماعية أعظم قوة من الانسان . وهى تفرض عليه طرقا يجب أن يسلكها راغبا أو كارها . لهذا يخيل الينا أن المرأة سائرة حتما فى ذلك الدرب الذى سار فيه الرجل من قبل ، وإن كانت له كارهة .

أما الاعتبار الثانى فهو أن المرأة خلقت لتكون زوجة وأما قبل أى شىء آخر . وهذه الوظيفة السامية تتعارض إلى حد كبير مع اشتغال المرأة بحرفة أخرى خارج الدار ، لأن ترك الزوجة لشئون المنزل وتربية الأطفال يجعل الجو المنزلى قاتما ويحرم الأبناء من ذلك الإشراف الضرورى بل الأساسى ، وهذا يسىء إلى تربية الأجيال المقبلة . وعلى هذا الاعتبار يقول المعارضون فى اشتغال المرأة إن النساء يجب أن تنحصر جهودهن فى تأدية واجبات الزوجية والأمومة ويتركن التكسب للرجال .

غير أن محبذى هذه الحركة لهم سلاح يشحذونه لمقاومة هذا النوع من التحكم ، إذ يقولون إن وجوب انصراف المرأة إلى الأمور المنزلية تحتمه فى ظروفنا الحالية أنظمة من السهل تغييرها . فإذا اتخذنا لمجرد التمثيل منزلا كبيرا مكونا من عشرة مساكن مختلفة تقطن كل مسكن أسرة ، وجدنا كل أسرة تقوم بعملية الطهى وتنظيف الملابس مستقلة عن الأخرى . وهذا فى نظرهم مضيعة للجهد لامبرر لها . وفى الاستطاعة تحوير هذا النظام بالتدريج بحيث تصبح المنازل كالفنادق يتركز الطهى والتنظيف فى جزء منها يرتبط مع باقى أجزاء المنزل بوسائل تجعل من السهل على كل أسرة أن تحصل على طعامها بانتظام فى أوقات معينة ، كما تستطيع أن ترسل ملابسها للتنظيف والكى فى أى وقت أرادت . وهكذا تتخلص المرأة من تلك الأعمال المرهقة التى تستغرق جانبا

كبيراً من وقتها . ويمكنها عندئذ أن تباشر العمل خارج المنزل .

أما عن تربية الأطفال فالأمر أسهل مما يظن الناس . إذ يقول أنصار قضية المرأة إن الانسان وقد خلق محبا للاجتماع يجب أن يوجه منذ نعومة أظفاره نحو هذه الغاية ، وذلك بتربية الأطفال تربية إجماعية . وهذا غير الحاصل الآن . ومن رأيهم أن الأطفال يجب أن يوكل أمر تربيتهم والاشراف عليهم إلى سيدات تخصصن فى هذا الفن فتعمم مدارس الحضانة لهذا الغرض . ويترك فيها الأطفال فى الأوقات التى تنشغل فيها الأمهات خارج الدار . وبهذا تستريح الأم من ناحية، كما يربى الطفل مع غيره على الفضائل الاجتماعية تحت رعاية من يفقن الأم فى فن التربية من الناحية الأخرى . والأكثر من ذلك أن روح الديموقراطية والمساواة الاجتماعية سوف تتأصل فى نفوس الجيل الناشىء ، ويجنى المجتمع ثمار هذه الألفة والمودة التى يشب عليها الأطفال ،

هذا فى الواقع وضع غريب لم نألفه كثيرا حتى الآن ، وإن كان موجودا فى بعض المدن الامريكية الكبيرة حيث لجأت أسر كثيرة إلى الاقامة فى الفنادق العظيمة من جراء افتقارها إلى الخدم . وتحقيق هذه الأحلام — إن جاز لنا أن ننعتها بهذا الوصف — يتطلب تغييرا أساسيا فى نظامنا الاجتماعى والاقتصادى . غير أن هناك مقدمات توحى بأن العالم قد يسير فى هذا الاتجاه . فالمرأة قد نبذت فعلا كثيرا

من الأعمال التى كانت حتمية فى الزمن الماضى واستعانت على قضائها بالمخترعات الحديثة ، فما الذى يحول دون تخلصها من باقى هذه الأعمال على حساب مدنية المستقبل ؟ . وما دام كثيرات من النساء المتزوجات يباشرن الآن فعلا أعمالا خارج المنزل فالحاجة تفتق الحيلة . والمستقبل كفيل بابتداع الوسائل التى تساعد المرأة على التحرر من أعمال المنزل على النحو الذى وصفنا .

وإذا كان كشف البخار والكهرباء قد قلب أنظمة العالم رأسا على عقب ، فمن يدرى لعل كشفا آخر يمهد الطريق الى ذلك الوضع الجديد الذى تصبو اليه نفوس البعض وترتعد له فرائص البعض الآخر ! ..

أما الاعتبار الأخير فهو أن اشتغال المرأة من شأنه زيادة الإنتاج العام من الناحية الاقتصادية الصرفة . ولما كانت زيادة الإنتاج من الأمور التى تسعى إليها كل أمة من أمم العالم وتعمل جهدها للوصول إليها ، فمن المؤكد أن هذه الحركة النسوية سوف تلقى تعضيدا كافيا من رجال المال على الأقل ، ومن أرباب الصناعة الذين يسعون إلى الربح أنى وجدوا إليه سبيلا . ومن ناحية أخرى نجد كثيرين من الرجال لا يعارضون بل يرحبون بهذه الفكرة لأن فى تكسب المرأة إلى جانب الرجل تحسينا للحالة المالية وضمانا من الفقر إلى حد كبير . كما أن فيه تخفيفا من تلك الأعباء المادية التى يتحملها الرجل وحده كعائل للأسرة .

ألا ترى معى أيها القارىء أن الظروف تكاد تكون مواتية لهذه

الحركة النسوية سواء رغب البعض أو كره ؟؟ ومع هذا فلنترك تقرير هذا المصير للمستقبل ففى ثناياه غوامض قد تعجز أبصارنا عن النفاذ إليها . . .

* * *

# الأسرة والدولة

للدولة إشراف دقيق على شئون الأسرة يفوق إشرافها على أى نظام آخر من النظم الاجتماعية . فالتعاقد على الزواج من الأمور التى يجب أن تقررها الدولة فى البداية والنهاية . والدولة تضع لسن الزواج حدا أدنى وتحدد درجة القرابة التى يجب ألا يجرى فى داخل نطاقها زواج ما . . وهى تعاقب على الاخلال بشروط التعاقد . وتقرر المسئولية المالية للزوج نحو زوجته وللأب نحو أبنائه . وتعتبر أملاك الوالدين كأنها أملاك الأسرة محددة بذلك طريقة الميراث . إلى غير ذلك من شتى أنواع التدخل .

فعلى أى الأسس تبرر الدولة لنفسها حق هذا الاشراف الدقيق على الأسرة .؟ الجواب على ذلك أن الأسرة تقوم بأهم وظيفة فى المجتمع ألا وهى بقاء الجنس . فالزواج ينجب أطفالا يخلق وجودهم أنواعا من المسئولية تختلف عن مسئولية أية علاقة اجتماعية أخرى بين أفراد المجتمع . على هذا أصبح عقد الزواج ، وهو أكثر أنواع العقود مساسا بشخصية الانسان ، من الأمور التى لا تخص المتعاقدين فحسب فحسب بل تمس الدولة بوصف كونها أداة المجتمع ، والوصية على حياة أطفال اليوم ومواطنى الغد .

وما دامت الرقابة على ينبوع الحياة بقصد المحافظة على الجنس هى الواجب الأول للدولة ، فمن حقها أن تنظم الحياة الزوجية تنظيما يتفق مع هذه الغاية السامية . فإذا نشأت حالة ترى الدولة أنها تهدد بتحطيم هذا القصد النبيل كأن يصاب أحد الزوجين بالجنون أو بمرض تناسلى لا يبرأ ، أو كأن يحدث بين الطرفين نفور لا تلتئم جراحه ، فمن واجب الدولة أن تقرر الفصل بين الزوجين .

ولقد تنبهت الدولة إلى عظم المسئولية الملقاة على عاتقها تجاه الأسرة والأبناء . فأخذت تقدم لها المساعدة بطرق مباشرة وغير مباشرة رغبة منها فى تنشئة جيل سليم البدن والعقل والخلق .

ورغم أن هناك تفاوتا كبيرا فى أنواع الخدمات الاجتماعية التى تلتزم بها الدولة حيال الأسرة بين مجتمع وآخر ، إلا أن العالم الممدن متجه بكليته نحو العمل على رفاهية الأسرة وسعادة الشعب .

وأول شىء يتحتم على الدولة القيام به هو توفير الغذاء الصحى اللازم لبناء الأجسام وجعله فى متناول يد عامة الشعب : الفقراء منه قبل الأغنياء .

وعلى الدولة أيضا أن توفر للأطفال ذلك الغذاء الروحى الذى يميز الإنسان عن الحيوان ، ألا وهو التعليم الذى يعتبر من مستلزمات الحياة كالماء . والغذاء والهواء . يجب ألا يحرم منه فقير لفقره أو يتمتع به الغنى فقط لغناه وثروته .

والمسكن الصحى كذلك من الأمور الهامة التى يجب على الدولة أن توفرها للأسرة ، فهو من العوامل الفعالة فى حفظ الصحة العامة . وليس من المستساغ أن يعيش الناس فى هذا العصر الممدن فى منازل هى أقرب للكهوف منها إلى البيوت .

والأسرة تتعرض الى كثير من المآسى والكوارث . فقد يموت عائلها أو يصاب بمرض يقعده عن العمل . أو يتعطل لا لذنب جنته يداه بل لسوء النظام الاقتصادى أو الظلم الاجتماعى . وقد يطعن فى السن فتحرمه الشيخوخة ثمار العمل — وبالمثل تتعرض الأم لآلام الحمل والولادة والمرض إلى غير ذلك من شتى المنغصات .. لهذا شعرت الدولة بوجوب تدخلها لحماية الأسرة من تلك الآفات الاجتماعية الخطرة . فبدأت الدول الأوروبية منذ نهاية القرن التاسع عشر تبتدع أنظمة للتأمين الاجتماعى وتتنافس على تحسينها وتعميمها ، حتى أصبح من القواعد المقررة الآن أن الدولة الناهضة هى التى تقضى على تلك الأمراض الاجتماعية التى تنخر كالسوس فى عظام المجتمع وتهدد صرحه بالانهيار .

ولم تشغل الحرب الحالية مختلف الدول المتحاربة عن التفكير فى توسيع ضماناتها الاجتماعية وإعادة بنائها على أسس أكثر متانة . لأن هذه الحرب الضروس التى تباشرها الأمم فى قسوة تفوق قسوة

الحيوان المفترس ستسفر عن ترمل ملايين النساء ، ويتم ملايين الأطفال وتحطيم حياة مئات الألوف من الأسر . وتلك مشكلة عويصة تنذر بالشر المستطير إن لم تبادر الحكومات إلى تدبر علاجها من الآن قبل أن يستفحل الشر ويبلغ السيل الزبى .

***

ويسرني كمصرى أن أرى الدولة فى مصر قد أولت الأسرة قسطا وافرا من اهتمامها . فمن دواعى الفخر والاعجاب أن تقرر وزارة المعارف مجانية التعليم الابتدائى وتعمل على نشر الثقافة الفنية وتوسيع نطاق التعليم الجامعى . تلك مآثر جميلة لمعالى وزير المعارف وأياد بيضاء يشكر عليها .

كذلك من جليل أعمال وزارة الشئون الاجتماعية اهتمامها بشئون الزواج والطلاق والطفولة المشردة . وابتداعها تجربة الكشف الطبى على الراغبين فى الزواج وانصرافها إلى تحسين حال العمال وتأمينهم ضد حوادث العمل إلى غير ذلك من شتى الخدمات الاجتماعية النبيلة .

ونحن إذ نقر للحكومة بما أدته للشعب من خدمات ونشكر لها حسن تصرفها وجميل رعايتها . نطالبها بالمزيد ونرجو ملحين أن تصوب معولها إلى أسس الفقر والجهل فتهدمها من قواعدها وتبنى للأمة من جديد صرحا شامخا وطيد الاركان .

# تصحيح اخطاء

| الصفحة | السطر | الخطأ | الصواب |
|---|---|---|---|
| ١٣ | ١٢ | الممدن | الممدنة |
| ١٦ | ٧ | من | عن |
| ١٦ | ١٥ | تقدم | تقوم |
| ١٧ | ٩ | مأذق | مأزق |
| ٥٤ | ٩ | وجلس | وجلسا |

تم طبع هذا الكتاب بحمد الله
بمطبعة العلوم
بشارع الخليج رقم ١٦٣ بمصر

DATE DUE

JAFET LIB.
07 DEC 2001
Circulation Dept.

JAFET LIB.
14 JAN 2000
Circulation Dept.

JAFET LIB.
27 FEB 2006
Circulation Dept.

JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept.

اسكندر ،لويس
الاسرة ومشاكلها الاجتماعية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01023755

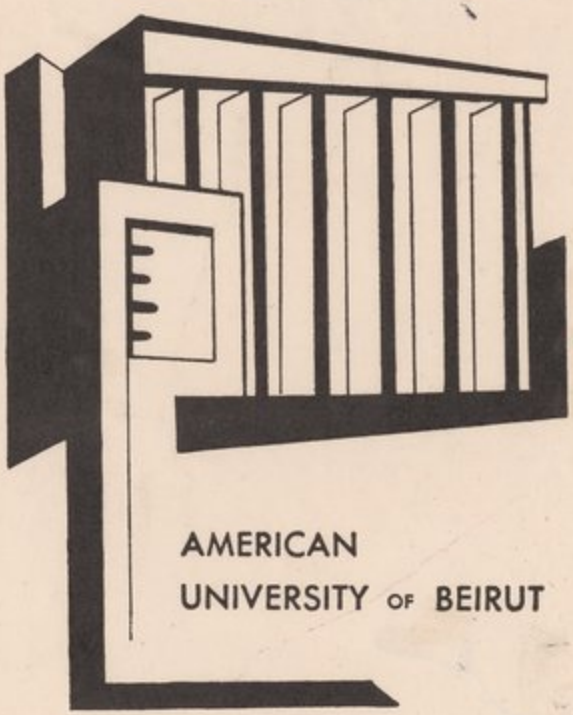

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

306.85
I81FA